سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[دفاتر تفكيك خطاب التطرف]

10

التطـــرف وخطـــاب الفهـــم والتحـــليـــل

د. عبد الرحمن بودرع

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

التَّطَرُّفُ وخِطابُ الفَهمِ والتَّحليل

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

- دفاتر تفكيك خطاب التطرف -

المشرف العام: أ. د. أحمد عبادي / رئيس التحرير: د. محمد المنتار

الإخراج الفني: يونس عبدوس

الطبع: مطبعة المعارف الجديدة. الرباط / الطبعة الأولى: (1440هـ/2018م)

الإيداع القانوني: 2018MO5752 / ردمك: 978-9954-600-85-6

تطلب منشوراتنا من:

• وحدة النشر والتوزيع وتنظيم المعارض

الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية الرباط.

الهاتف والفاكس: 0537.70.15.85

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• المعرض الدائم لإصدارات الرابطة المحمدية للعلماء

شارع فيكتور هيكو رقم 53 مكرر، الأحباس، الدار البيضاء.

الهاتف: 0522.44.86.57 الفاكس: 22.54.20.51 5 (212+)

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط

البريد الإلكتروني: Derelamane@menara.ma

هاتف وفاكس: 37.20.00.55 5 37.72.32.76/ 5 (212+)

كل الحقوق محفوظة

Tous droits réservés

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

www.arrabita.ma

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو اختصار أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[دفاتر تفكيك خطاب التطرف]

10

التَّطَرُّفُ وخِطابُ الفَهمِ والتَّحليل

د. عبد الرحمن بودرع

أولا. أهمية الخطاب اللغوي وأثره في إحداث الفعل

الخطابُ اللّغويُّ فكرٌ وفعلٌ، بل هو قَرينٌ للفعل مُصاحبٌ لَه محرّضٌ عليْه، يُواكبُه، ويُوطّئُ له الطّريقَ، ويُسدّدُ له المَسيرَ، وهو شاهدٌ على العَصر.

والنّصُّ الذي هو مادةٌ للخطاب، قد يَكونُ حاسماً في أمورِ السلمِ والحَربِ؛ فَقَد يُوَطّئُ للسّلمِ ويُوطّئُ للحربِ[1]. لننظر مَثلًا النّصَّ الشّعريَّ؛ إنّه نصٌّ لغويٌّ مَليء بالصُّوَر والاستعاراتِ والمَجازاتِ، وليسَت استعاراتُه أصباغاً للوَجْه وتَطريةً ولا تَجميلاً للواجهَة وتَحليَة. إنَّما النّصُّ الشّعريُّ أطرٌ مَعرفيّةٌ وآلياتٌ لإدراكِ الواقعِ وعِلمٌ وديوانٌ للحياةِ. وجُزءٌ من الخطابِ اليوميّ، فبالنّصِّ الشّعريِّ يَحْيا كثيرٌ من النّاسِ. وبالاستعاراتِ يَحْيَوْنَ[2].

ويزْدادُ الأمرُ تأكيداً بمُعايَنَةِ أثرِ الخطابِ السّياسيّ وما يعضدُه من بَلاغاتٍ وصورٍ يُزوَّدُ بها؛ فمن آثارِه أنّ كلَّ جهةٍ تشنُّ الحربَ أو أفعالاً تَرْويعيّةً فإنّها لا تُقْدِمُ على فعْلِها إلاّ بعدَ أن تُوَطِّئَ له بخطاباتٍ ونُصوصٍ تُصوّرُ ضرورةَ إشعالِ نارِ الأفعالِ، وأنّ العالَمَ سيسقطُ في مهْوىً سَحيق منَ الفقرِ والجهلِ، وفجّ عَميقٍ من التّخلّف إذا تُرِكَ العَدُوُّ أو الخصمُ حُرّاً طليقاً.

(1) عبد الرحمن بودرع، في تَحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، قَضايا ونَماذجُ من الواقع العَربي المُعاصر، داركنوز المعرفة. عَمّان، ط.1، 1436هـ. 2015م، ص: 16.

(2) أفاضَ الباحثان اللسانيّانِ جورجْ لايكوفْ، ومارك جونسونْ في بيانِ هذه الحقيقَة، في كتابِهما: «الاستعارات التي نَحْيا بها»، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر. الدّار البيضاء، 1996م. ويُنظَرُ أيضاً: بِنْياتُ المُشابَهَةِ في اللّغةِ العربيّة، عبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، 2001م.

ثانيا. تَصويرُ الأفعال بصورٍ بلاغيّة مُسوِّغَة أو مُنفِّرَةٍ أو مُقرِّبَة

الاستعارةُ الحربيّةُ في السياسَةِ دَليلٌ على العُنفِ والتّطرُّفِ في التّصوُّرِ وأداةُ التصويرِ مُصطَلَحات سياسيةٌ وعسكريةٌ بنَفَحاتٍ بَلاغيّةٍ أو عباراتٌ أو مُتلازماتٌ لَفظيّةٌ مُركَّبةٌ تَركيباً بلاغياً استعارياً عُضويا وليسَ طارئاً. فمِن نَماذِج الاستعارات التّصويريّةِ ما شاعَ في فَضاء الإعلام العالَمي من كلماتٍ وعباراتٍ نحو:

عاصفَة الصّحراء - عناقيد الغَضَب[1]. العمليّة الجراحيّة الخاطفَة - تَجفيف المَنابع - تَقليم الأظافر - غَسل الأدمغَة - النيرانُ الصديقَة - النجاح الساحق للإضراب.

الجولة الثانية من المفاوضات - الكرة في ملعب الطرف الآخر - «اللعبة» السياسية - الروح الرياضية - الضربة القاضية.

تشييد الإجماع الوطني - إعادة بناء العلاقات المتدهورة - ترميم العلاقات -رأب الصدع.

صَهْر الموقف - صِياغة الموقف - صنع القرار - صنع الأغلبية البرلمانية.

الارتماء في أحضان الغرب - اغتصاب الحقوق - مغازلة السلطة - التودد للنظام - انتهاك حقوق الإنسان.

---

(1) استُعير هذا المركب الوصفي من روايَة الكاتب الأمريكي جون ستاينبيك(The Grapes of Wrath) . التي كَتَبها عام 1939م، وفاز عنها بجائزة بوليتزر في 1940م. تُرجمَت إلى العربية ونشرت الترجمةَ وزارةُ الثقافة الأردنية، سنة 2010م، مكتبة الأسرة الأردني. استُعيرَ عنوانُ الروايَة الأمريكية لتسمية العملية الحربية الإسرائيلية «عناقيد الغضب» التي شنها الجيش الإسرائيلي في هُجومه العسكري الخاطف على جنوب لبنان، وهي المعروفة بحرب نيسان ضد لبنان في 1996م. والمركبُ الوصفي «عَناقيد الغَضَب» اسم رمزي للعَمَلية الحَربية فيها استعارَة العُنقود للغَضَب، وفيها تشبيه للصواريخ المُلقاة بحَباتِ العنب لكثرتها وتَواليها؛ فقَد شُنَّت في هذه الحَرب أكثر من ألف غارةٍ جوّيّةٍ، وأُلقِيَت فيها أكثر من خمسة وعشرينَ ألفاً من القَذائف.

اللغم السياسي - الهجوم أو الاعتداء الحكومي على القدرة الشرائية - ضرب القُدرة الشرائية - استيلاء الحزب على المقاعد - ضرب الحريات النقابية - المعركة السياسية - معركة الانتخابات. المساس بالسلم الاجتماعي - تهديد الأمن الداخلي - زعزعة الاستقرار - تصفية الأجواء - فكّ الارتباط.

تَحريك مياه المَشهد السياسيّ الرّاكدَة[2] - المزادات تُحرك مياه العَقارات الراكدة - إذابة جليد الخلاف - الخَوْضُ في ماء الشُّؤونِ الخاصَّة العَكِر - تعويم سعر العملة المحلية.

صَفْقَة القَرْن[3]: مصطلَح سياسيٌّ بلَبوس تجاريّ، ويُطلَقُه الساسةُ عادةً، يدلُّ ذلكَ على أنّهم يَتعامَلونَ تَعامُلَ البائع والمُشتري والرابح والخاسر والمُستَفيد والمُسْتَفاد منه والخادع والمَخْدوع... في أمور السياسَة والعلاقَات الدوليّة.

إنّ الاسْتعارةَ الحَربيةَ أو غير الحَربيّة في السياسة، استعارة عضوية وليست استعارة طارئة؛ أي هي مُلازَمَة الفعل للخطاب واللغة السياسية. واللغة السياسية تعكس طغيان المصطلحات والمفاهيم العسكرية في

(2) عبارَة استعاريةٌ تُنقَل من مَيْدان الماءِ والرّيّ إلى ميدان السياسَة لتقريبِ الفعلِ السياسيّ المرادِ.

(3) مصطلح «صفقة القرن» Deal of the Century، وهو في الأصل عُنوان شريط سينيمائي أخرَجه سنةَ 1983م، ويليام فريدكين William Friedkin، واستُعيرَ في السنين الأخيرَة على لسان الإدارَة الأمريكية، منذ عام 2006م حتّى اليَوم، من خلالِ ما عُرف بـ «عرض أولمرت» بخُصوص القضية الفلسطينية، أو «تفاهم أولمرت وعباس»، وما تسرب حينها من أنها «اتفاقيات رفّ» تنتظر الانتخابات الإسرائيلية ونتائجها آنذاك... انظرْ: صَفْقة القَرْن، محمد إبراهيم المدهون، موقع الجَزيرة نت:

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/14/6/2017/%D8%B5%D9%81%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%86

الثقافة المعاصرة كلها؛ فإنّ ما يؤهلُ لغةَ السياسة. أكثر من غيرها. أنها تَعتمِدُ نماذجَ الاستعارة الحربية والحقل الدلالي الحَربي، فتلك ماهيةُ السياسة نفسِها في الأذهان وفي ثَقافة النّاسِ؛ وهي العلاقة بين مختلف مفاصل الكيان الاجتماعي. وهي فن تدبير مسار الكيان الاجتماعي[1].

(1) يُنظرُ مَقال: الاستعارَة في اللغة السياسية، سعيد الوجاني، ضمن محور: مواضيع وأبحاث سياسية. موقع «الحوار المتمدّن». الحوار المتمدن، العدد: 4182، غشت 2013م.

ثالثا. مَدخلٌ لغويٌّ لتَعْريفِ ظاهرَة التَّطرف

ما من حَديثٍ عن ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو الثّقافيّة أو قضيةٍ من القَضايا الفكريّةِ إلاّ ويُعتَمَد فيفهمها وتصوُّرها ووصفِها وتأويلها على الخطابِ اللغوي والبلاغيّ الذي يلفُّها ويحفُّ بها ويُرافقُها.

وأهمّ جانبٍ من جَوانبِ الخطابِ اللغويّ صياغةُ المصطلَح المُعْربِ عن الظاهرةِ ليكونَ اسماً ووَسْماً ورسماً للمفهوم الذّهنيّ.

والجانب الثاني هو البَحثُ في الحَقْل الدّلاليّ لهذا المَفهوم وما يُجاورُه من مَفاهيمَ تُغذيه أو تُواكبُه؛ لأنّ حَقلَ الكلمةِ الدّلاليَّ يُمكن أن يُتصوَّرَ شبكةً علاقيّةً من المَفاهيم والأنساقِ التي تُستحْضَرُ وجوباً عند دراسة الموضوع.

فالظّاهرةُ المَدروسَةُ هي التّطرُّفُ، والخطابُ المحللُ والباحثُ أو المُفكّكُ للظّاهرة، هو مَجموعُ التعريفاتِ اللغوية والبلاغيّةِ والمَقالاتِ التي صيغَت حَوْلَه، والمُعجَمِ الذي بُنيَ لحَصْرِ كلماتِه والعباراتِ المَشهورَةِ بين النّاسِ التي تتنزَّلُ عندَهُم منزلةَ المُسلَّماتِ، وكذلك المُتلازمات اللفظيّة والمُصطلحات الجاهزَة التي يُهرَعُ إليْها عند إرادة الفَهم أو التعريفِ أو التأويل أو التّفكيك للظاهرَة.

رابعا. التّطرُّفُ وأزمَة الفَهم

يَقترنُ خطابُ التّطرُّفِ بأزمَةِ الفَهم[1] وتَنكشفُ أزمةُ الفَهم وتتجلّى مِن خطابِ التّطرُّف ومَفاهيمِه ومُصطلحاته والعباراتِ التي يَستعملُها ويَرتضيها.

فكلُّ طَرفٍ استحقَّ أن يوصَفَ بصفةِ التّطرُّفِ فلا يُنعَتُ بها إلاّ على سبيلِ النّقدِ والإدانَةِ، سواء أكانَ فرداً أم جَماعةً مناوئةً لسياسةٍ ما أم دولةً تقفُ من غيرِها مواقفَ متحيّزةً لتحقيق مَصلحةٍ أو دَرْءِ مَفسدةٍ، وتوصَفُ تلك المواقفُ بالغلوّ والشَّطط.

---

(1) أُلْقِيَ في مُؤتَمَر «أزمة الفَهم وعَلاقتها بظاهرَة التّطرُّف» الذي نظمته الجامعَةُ الإسلاميّةُ بغَزّة ووزارَةُ الأوقافِ والشّؤون الدّينيّة الفلسطينيّة، يومَ الأربعاء 8 مارس 2017م، اثنانِ وأربَعون بَحثاً علمياً، يُمكن عَدُّه بمثابَة خطابِ تفكيك التطرُّف وتحليله النّقديّ: انظر: الأعمال الكاملَة للمؤتَمَر العلميّ الدّوليّ «أزمَة الفَهم وعَلاقتها بظاهرة التّطرُّف والعُنف»، نَشر: وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة، غزّة، 2017م، عدد صَفَحات الكتاب: ألفُ صفحَةٍ وتسعُمائةِ صَفحَةٍ وثلاثٌ وخَمسونَ صفحةً [1953]، وانقسَم البرنامجُ إلى أربعة مَحاورَ: أولُها أزمةُ سوء الفَهم، الأسباب والمَظاهِر، والثاني التطرُّفُ والعُنفُ، الجُذورُ والمَخاطرُ والآثارُ، والثالثُ الجهادُ في الإسلامِ، الفَهمُ والممارسَة، الرابعُ: المُعالَجَةُ الفكريّةُ لظاهرَة سوءِ الفَهم. وعُقدَت بعدَها ندوةٌ عالَميةٌ أخرى بكليّة آداب القَيْروان، موضوعُها «الخطاب التكفيري في الفكر العربي الحديث والمعاصر» 20 أبريل 2017م، والغايةُ من النّدوَةِ: . فَهمُ هذه الظاهرة فهما علمياً سليما؛ . إعادة تفكيك الخطاب الحضاري، وبصورة خاصّة الخطاب الدّيني، حتّى يقف الباحث على مواطن الضعف فيه، بهدف تجويده وتصويبه؛ . التنبيه على العنايَة بهذا الخطابِ وعَدم الاستخفاف به، والبحثُ عن السبل والمقاربات المناسبَة لمقاومته والتصدّي له؛ . السعي إلى البَحث عن حلول ومقترحات وطنية ودولية تكونُ بمثابَة الخطط والاستراتيجيات التطبيقية؛ . الوقوف على أسباب خطاب التكفير ومنطلقاته الداخلية والخارجية برصد ما يفرزه من مواقفَ متصلبة وما يدعو إليه من انغلاق وتقوقع؛ . إرساء ثقافة الانفتاح على الآخر والسعي إلى فهمه وفق أسس مشتركة واستناداً إلى ثقافة الإنصات والحوار؛ . تَصحيح الفوضى في المفاهيم وتثبيت الفكر النقدي والبعد الإبداعي المنفتح على الثقافات الأخرى.

ومصدرُ أزمةِ الفَهمِ الشبُهاتُ التي تُحيطُ بالفكرِ المُتطرّفِ وتَستولي على لغته وإدراكه ومواقفه.

فيدخلُ في خطابِ التّطرُّف: المُصطلحُ والألفاظُ التي تدلُّ على علله وأسبابِه التي تَقودُ إلى سوء التّصوُّر وسوء الفَهم ثمّ سوء الفعلِ.

لا شكّ أنّ أزمةَ الفَهم والتّصوّر ينتجُ عنهما خطابٌ لغويٌّ متطرّفٌ، في تسميةِ الأشياءِ وفي المحاوَراتِ والمُناظَراتِ، وفي استيعابِ الآخَروتقبُّلِه أورفضِه، وفي مَنهج الاستدلال بالنّصوصِ الشّرعيّةِ لتسْويغ الأفعالِ.

فمن خصائص الخطابِ المُحلل المُفكّكِ لظاهرَة التّطرُّف، التي يُمكنُ أن تُجعَلَ مُقدّماتٍ ومَداخلَ لفَهم الظاهرة: خطابُ التّطرُّفِ وغيابُ فقه الدّين، وغيابُ فقه الواقعِ، خطابُ التّطرُّفِ وسوءُ فَهم النّصوص الشّرعيّةِ وسوءُ تأويلِها وسوءُ تَنزيلِها؛ فهو خطابٌ جامدٌ متصلّبٌ يُعاملُ الواقعَ على أنّه جثّةٌ هامدةٌ تُحاكَم وليسَ واقعاً يُحاوَر، ثمّ خطابُ التّطرُّف في السياساتِ الدّوليّةِ التي تَدّعي مُحاربَةَ الإرهاب فتُنشئُ خطاباً ومَفاهيمَ ومُصطلحاتٍ وإعلاماً مكتوباً ومسموعاً، تنشرُه لفَرضِ فهمٍ مُوحّدٍ مَبنيّ على حِجاجٍ مَزعومٍ، وتوحيد مواقف المُخاطَبينَ من المسألَة، من خصائصِ خطابِ التطرُّفِ أيضاً تَحويلُ بَرامج الدّولَة ومؤسساتِها في التعليم والإعلام والشأن الديني والثقافَة إلى بَرامجَ لمُحاربة الإرهابِ، وإعلانِ ذلكَ خُطّةً مُستديمةً.

خامسا. مَفْهومُ التّطرُّف

يُحلَّلُ خطابُ التّطرُّفِ ويُعالَج بخطابِ المَداخلِ اللغويّةِ والبلاغيّةِ، أي يُعالَج بخطابٍ مُضادٍّ، على رأسه تَحريرُ التّعريف اللغويّ والاصطلاحيّ:

تَطرَّفَ الشيءُ وتَطرَّفُ الحرفُ في الكلمةِ وَقع في الطّرَفِ. وتطرَّفَت النّاقَةُ رَعَت في الناحيةِ وأطرافَ المرعى ولم تَختلطْ بالنّوقِ، وناقةٌ طَرِفَةٌ لا تثبتُ على مَرعى واحدٍ، فهي متقلّبةٌ بين المَراعي مُتنقّلةٌ[1]، وكلّ ما وقعَ في الطّرَف تعَرَّضَ للإجحافِ والنّقصِ والتّأثّرِ بعواملِ التّعْريةِ واحْتاجَ إلى التَّحْصين والوقايَةِ. وكلَّما تطرَّفَ الشيءُ أو الفَردُ ازْدادَ تميُّزاً ولَفتاً للأنظارِ وازدادَ الناسُ به عنايةً وإليْه نظراً، فالمتطرّفُ يتوهّمُ أنّه يقفُ في الموقفِ الحَسَن، ولكنّ الخطابَ الذي يُنتجُه مَوصوفٌ بصفاتِ التّطرُّف التي يدلّ عليْها المُعجَم: كالابتعادِ إلى أطرافِ الأماكنِ المُعرَّضَة للمَخاطرِ والإجحافِ، والتقلُّبِ في المَواقفِ وعدمِ الثّباتِ على موقفٍ واحدٍ. والشعورُ بالتّميُّزِ لا يدلُّ بالضّرورةِ على جودةٍ أو حُسن حالٍ، ولكنّه يدلُّ على أنّ التّطرُّفَ موقعٌ مُنتبِذٌ، أو مَكانٌ مَعْنويٌّ ذهنيٌّ افتراضيٌّ يتّخذُه صاحبُه، وهو لا يَعلمُ أنّه موقعٌ قريبٌ من الحَرفِ الجارِفِ وبعيدٌ عَن وسطِ الأماكنِ الآمِنِ ومُلْتَقاها. إنّ التّطرُّفَ يَعْني اتّخاذَ أطرافِ الأماكنِ وأشتاتِها وأباعدِها مواقعَ، والأطرافُ عُرضةٌ للإجحافِ.

يُعرّفُ الخطابُ المضادُّ وهو خطابُ التّحليلِ الظّاهرةَ بأنّها ظاهرةٌ إنسانيةٌ مَحكومةٌ بشروط إذا ظَهَرَت وطَغَت غَلا الإنسانُ غلواً وتشدد

(1) لسان العرب لأبي الفَضل جَمال الدّين بن مَنظور الإفريقي، دار صادر. بيروت، 9/ 216.

واتخذَ مواقفَ في الفكروالفهم والفعل، وليسَ التطرفُ مُرتبطاً بشعبٍ أوجنسٍ أومِلّةٍ أونحلة، ولكنّه مَواقعُ يتّخذُها ومواقفُ يَقفُ فيها وخُططٌ يَختطُّها أفرادٌ أو جَماعاتٌ أو دولٌ ويَكونُ لتلك الاختياراتِ أساليبُ لغويّة مُعبّرَة وخطاباتٌ مُسوّغةٌ مناسبةٌ، تُمهّدُ للأفعال والإنجازاتِ وتوطِّئُ لَها بما يَضمنُ لها النّجاحَ والانتشارَ.

سادسا. التَّطرُّفُ ومَفاهيمُ أخرى تقتسمُ الحقلَ الدَّلاليَّ

يتَّصلُ بالخطابِ المضادّ مُصطلحاتٌ تَقتسمُ والتطرُّفَ الميدانَ، ومن تلك المصطلحات والعبارات اللغويةِ المُستعمَلَةِ التَّحريضُ الدّيني والطّائفيّةُ الدّينيّةُ، والفكر الأحاديّ، والإرهابُ والتشدُّدُ والفئويّةُ... ولكن لا بُدّ من التّنبيه على أنّ بين هذه المُصطلحاتِ فُروقاً مُعتبرَةً لا يَنبغي إغفالها عندَ دراسة خطابِ التّطرُّف، وعلى رأس الفُروق أنّ الإرهابَ من «مُخرَجات» التطرُّف؛ لأن التّطرُّفَ موقفٌ في الفَهم يَقِفُه المتطرّفُ وموقعٌ في النّظرِ إلى الأشياءِ والعالَم يَتّخذُه، لكنّ الإرهابَ صفةٌ من صفاتِ الأفعال وإنجازٌ عَمَليّ مَيدانيٌّ من مُنجَزاتِ موقف التّطرُّف، وَله وجه عَمليّ فيه تَرويع الأحياء والأبرياء وتَهديد الأمن العام، وقَد يَكون محلياً أو دولياً، وقَد يكونُ إرهابَ أفرادٍ أو إرهابَ دولةٍ مُنظّمةٍ. أمّا خطابُ الإرهابِ فهو كلّ خطابٍ لغويّ [أو غير لغويّ يَستخدمُ وسائلَ تواصليّةً أخرى] يُقصدُ به الترويعُ والتّخويفُ وتَوجيه رَسائلِ التَّهديدِ لتَحقيقِ مَصالحَ خاصّةٍ.

من أهمّ ما نُشرَ في تَعريفِ مُصطلَح الإرهاب الدِّراسةُ التي أنجَزَها مَجمعُ اللغة العربية على الشّبَكةِ العالَميّةِ الذي مقرُّه بمكّةَ المكرّمة، في تَعريف الإرهاب، ومن التَّعريفاتِ التي قدَّمها بعضُ المَجمعيّينَ، ونوقِشَت في مدّةٍ كانَ مقْدارُها سبعَةَ أشهرٍ، خرجَ بعدَها بقرارٍ تَعريفيّ هو القَرارُ السّابعُ، جاءَ فيه: «يَرى المَجمعُ أنّ التّعريفَ اللّغويَّ للإرهابِ هو الإخافةُ والتّفزيعُ، أمّا التّعريفُ الاصطلاحيُّ فهو الإخافةُ والتّفزيعُ بغيرِ حقٍّ، بالسّعيِ في الأرضِ فَساداً، أو بقتلٍ، أو احتلالٍ، أو غَصبٍ، أو

نَهبٍ، من فَردٍ عادٍ، أو فئةٍ باغيةٍ، أو دولةٍ ظالمةٍ». وهذا التّعريفُ مبنيّ في أساسِه على المَعْنى اللّغويّ، وعلى بعضِ ما قدّمَه أعضاءُ المَجمعِ من دراسةٍ وتَعريفاتٍ، وعلى بعضِ البياناتِ السّابقةِ في شرحِ معنى الإرهابِ، من أشهرِها: بيانُ وُزَراءِ الدّاخليّةِ والعَدلِ العَربِ، ومَجمع الفقه الإسلاميّ... وفي تَفصيلِ القَرارِ تعريفاتٌ أخرى، بعضُها موجَزٌ وبعضُها مُطوَّلٌ، جَديرةٌ بالاعتبارِ والنّظرِ. ويَرى المَجمعُ أنّ الباعثَ على مُشاركتِه في التّعْريفِ بمُصطلَح الإرهابِ، هو اليَقينُ بأنّ للغةِ جانباً لا يَجوزُ إهمالُه في تَحقيقِ المُصطلحاتِ وتَدقيقِ المَعاني[1].

قد يَتَّخذُ خطابُ التّطرُّفِ من المَنابرِ الرّسميّةِ المُتاحَةِ للوَعظ والإرشادِ، منبراً له، ويتَّخذُ خطابَ الوَعظِ لغةً وتَواصلاً:

الخطابُ الوعظيُّ: يدلُّ الخطابُ اللّغويُّ على عملٍ تَفاعليٍّ مُتَبادَلٍ بين مُتكلمٍ ومُخاطَب، والوعظُ خطابٌ من بَيْن الخطاباتِ البشريّةِ المُختلفةِ، فهو خطابٌ لغويٌّ ذو دلالةٍ خاضعةٍ للتّحليل والتأويلِ، وهناك نَمطان من الخطابِ أحدُهُما يأخذُ بسياق النّصّ الخارجيّ وملابساته الاجتماعيّةِ والآخَر يَغفلُ عن ذلك، والحقيقَة أنّه لا يُتصوَّرُ قيامُ خطابٍ ذي قيمةٍ وقابليّةٍ للتّحليلِ والتأويلِ إلاّ إذا وُضعَ في سياقه الخارجيّ وأركانه التّخاطبيّةِ المَلموسَةِ، وهي المتكلّم والمُخاطَب والسّياق

---

(1) نُشرَ قَرارُ تَعريفِ المَجمع للإرهابِ بأحَد أعدادِ مَجلتِه، ثمّ بموقعه على الشّبكَة العالمَيّة:
http://www.m-a-arabia.com/site10902/.html
وانظر في تَعريف الإرهاب أيضاً، وبيان أسبابه وتاريخِ نشأته وإجراءاتِ تَجريمه قانونياً: الإرهاب بينَ الفقه الإسلاميّ والقانون الدّوليّ، حسين هاشمي، ترجمة: رعد الحجاج، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدّراسات الحضارية. بيروت، ط.1، 2014م، ص:26.

الاجتماعيّ والمَقاصد، وقَد يَدخلُ في التركيبَة الخطابيّة الحُضورُ أو المُستمعونَ والموضوعُ والمَقامُ الذي هو زَمانُ الحَدَث التَّواصليّ ومَكانُه؛ لأنّ مُحللَ الخطاب مَعنيٌّ بالنّظرِ في الخطابِ من خلالِ الاستعمالِ.

أمّا الوَعظُ فهو النُّصحُ والتّذكيرُ بالعَواقبِ بما يُلين القُلوبَ، وقد عرَّفه المنّاوي بأنّه «إهْزازُ النَّفسِ بمَوعودِ الجَزاءِ ووَعيدِه. وقيلَ التّذكيرُ بالخير فيما يَرِقُّ له القلبُ، وقالَ الرّاغبُ: الوَعظُ زجرٌ مُقترنٌ بتَخويف»[1].

«ولو أمعَنّا النّظرَ في هذه السياقاتِ اللّغويّةِ أو الرُّؤيَة الاصطلاحيّةِ... أمكَننا أن نُمسِكَ بثلاثِ سِماتٍ، أولُها أثرٌ والآخَران أداتانِ لغويَّتانِ:

- الخطابُ اللّغويُّ مؤثّرٌ [يُلينُ القلوبَ ويُدمِع العَيْنَ ويهزّ النفوسَ]
- الخطابُ الوَعظيُّ أمرٌ [تَرغيب]
- الخطابُ الوعظيُّ نَهيٌ [تَرهيب]

يتكوّنُ الخطابُ إذاً من لُغَةٍ خاصّةٍ تَقومُ على الأمرِ والنّهي بأساليبِ اللغةِ المُباشرَةِ وغيرِ المباشرَةِ في الأمرِ والنّهيِ والتّحذيرِ والإغراءِ»[2].

من أساليب الخُطَب الوَعظيَّةِ كثرةُ الاستشهاد بالنّصوص الشّرعيّةِ، والإكثارُ من خطابِ تَزكيةِ النُّفوسِ واستخدام السّجع والعبارات القويّةِ والاستعاراتِ، وقد يَرفعُ الوُعّاظُ أصواتَهُم إلى درجة تصل إلى حدّ

(1) زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف المنّاوي (ت1031هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، نشر عالم الكتب. القاهرة، ط.1، 1410هـ. 1990م، ص:339.

(2) عبد الله بن رفود السفياني، الخطاب الوَعْظيّ، مراجَعَة نَقديّة لأساليبِ الخطابِ ومَضامينِه، مَركز نَماء للبُحوث والدراسات، ط.1، 2014م، ص:32.

الإزعاجِ ويستعينونَ بقصص فيها مُبالَغاتٌ وتَخويفٌ وتَحقيرٌ للعُصاةِ، ويُكثرونَ من خطابِ الوَعظِ مدةً تَطولُ فيشعُرُ المستمعونَ بالمَلَل والنُّفور وقد يَصلُ الخطابُ الوعظيُّ ببعض الفئاتِ من المُخاطَبينَ إلى حدِّ القُنوطِ واليأسِ. ومن سلبيات كثيرٍ من خُطب الوَعظِ تَكْرارُ الموضوعاتِ والتّركيزُ على المشكلاتِ الظّاهريّةِ وإهمالُ الأمورِ الجوهريّةِ، والتّركيزُ على التّرهيبِ أكثر من التّرغيب، ويَكثرُ تصويرُ المرأة بصورٍ مهينَةٍ تنقصُ منها وتَعُدُّها المَصدرَ الدّائمَ للبَلْوى، وكثيراً ما تُثيرُ الخُطبُ الوعظيّةُ الصراعَ الطّائفيَّ[3].

فظهرَ من خطابِ الوَعْظ أنّ الخَطيبَ يتَّخذُ الكلماتِ والعباراتِ ومُرافقاتِ النّصّ من صَوتٍ واستعاراتٍ وغيرِ ذلكَ أساليبَ لإيصال المَعاني إلى المتلقّينَ، ويُرافقُ ذلكَ كلَّه آثارٌ متفاوتةٌ يَحملُها الخطابُ إلى عُقولِ النّاسِ وقُلوبهم، فتُثيرُ عندَهم استجاباتٍ ورُدودَ فعلٍ متفاوتَة.

(3) عبد الله بن رفود السفياني، الخطاب الوَعْظيّ، مراجَعَة نَقديّة لأساليبِ الخطابِ ومَضامينِه، ص: 316 - 319.

سابعا. هَل تَنطوي اللغاتُ على عَناصر العُنف والتَّطرُّف؟

أولاً؛ تُعدُّ الكلمةُ مسؤوليّةَ مَن يَملكُ زمامَها ويُحسنُ نظْمها على النّحو الذي يُنشئُ بها نصّاً مؤتلِفاً مَسبوكاً حسنَ الصّنعَة، يُفضي إلى خطابٍ تدخلُ في تداوُله أطرافٌ كثيرةٌ، فتصيرُ حَرَكَةُ الانسلاكِ في تَداوُل القَضايا في ظلّ خطابٍ لغويٍّ، عيْنَ الاشتراكِ في صنع الحَدث أو تَوجيهِ مَصنوعِه. وأنتَ إذا انفتحْتَ على المُمكناتِ فإنّما تَفعلُ ذلكَ بما تَملكُه من طاقةٍ لغويّةٍ تُعربُ بالدّقّة اللازمّةِ عن طاقةٍ فكريّةٍ نافذةٍ في جسمِ الأحداث وخضمّها، فتكونُ الأحداثُ الممكنةُ والمَخارجُ المُحتَمَلَةُ التي لم تحدثْ بعدُ عبارةً عن مَفاهيمَ في كلماتٍ، وكلّما أخذَتْ المَفاهيمُ اللُّغويّةُ حظّها من الواقعيّةِ والصّدقِ والتَّماسُك المَنطقيّ والمصلحَة العامّة، تحوّلَت من ألفاظٍ ذاتِ طابعٍ صوتيّ يحملُ في جوفِه دَوالَّ ومَدلولاتٍ إلى أحْداثٍ تَجْري في واقعِ النّاسِ وتُتداوَلُ في مَسالِك حَياتِهم وتُصنَعُ منها القراراتُ السَّديدُ التي تَقودُ رَكبَهُم أو توجّهُ مَسيرَتُهم وتتحكّمُ في طرُق عيشِهم وتنميةِ أوضاعِهم Haut du formulaire ...

وإذا كانَ للكلمةِ خطرُها في الانتقال من الفكر إلى الفعلِ فسنجدُ أنها مُبْتَلاةٌبالإصابَة بداءِ التّطرُّف والعُنفِ؛ فمن خَصائص اللغة ما سُمّيَ بالعُنف اللّسانيّ؛ فقَد ذهبَ بعضُ الباحثينَ إلى أنّ الأصلَ في اللغة احتواءُ القيمَة ونَقْلُها لأنها وعاء يَشتملُ على أسمى ما يُمكن أن يتعلَّقَ به الفردُ من مَعانٍ، أمّا ما أدخلَه المتكلّمونَ من ألفاظٍ وتعبيراتٍ مُستحدثةٍ فذلك يُعدُّ لغةً أخرى دَخَلَت إيجاباً أو سلباً على اللغةِ الأصليّةِ في أحوال فرديّةٍ أو اجتماعيّة أو تاريخيّةٍ مُعيّنَةٍ، ويَعني ذلك أنّ

ظاهرة «العُنف اللّسانيّ» داخلةٌ على اللغةِ نسبياً، وإن كانَت قد تحوَّلَت وأصبحَت طرفاً في اللغةِ بفعلِ التّداخُلِ بين اللغةِ وفعلِ الكلام[1]، إذا كانَت اللغةُ مبنيةً على بنياتٍ معيَّنَةٍ كقَواعد النّحو والاشتقاق وضَوابط مَخارج الحُروف والأصواتِ ؛ فإنّ «بنيةَ القِيَم» تُعدُّ إحداها، وتَحْيا اللغةُ وتؤثرُ في المتلقّي تأثيراً إيجابياً إذا كانَت مُحمَّلةً بالقيم، أمّا إذا أُفرغَت تحوّلَت إلى أداةٍ غير مؤثّرةٍ وغيرِ فاعلةٍ، كما يُلاحظ اليومَ في لغة التواصُل اليوميّ والإعلام، وهو نَوعٌ من العُنفِ في الاتّصالِ والإعلامِ، فالعُنفُ اللغويُّ ناشئٌ ن طَريقةِ استخدام اللغةِ في التواصُل والإعلامِ، أضفْ إلى ذلكَ أنّ الخُروج على القَواعدِ أو تَغييرُها يُؤثّرُ في المَعْنى لأنّ «التَّغيير في المَبْنى يُؤدّي إلى التّغييرِ في المَعنى». بنيةُ القِيَم أساسٌ تتأسَّسُ عليْه اللغاتُ، وإذا ضَعُفَت القيمَةُ «انْحصَرَ دورُ اللّغةِ وأصبحَت أصواتاً تَعني كلَّ شيءٍ، ولا تَعْني أيَّ شَيءٍ في الوقتِ ذاتِه»؛ «فالعُنفُ الذي يَنتابُ فعلَ الكَلامِ لا يَعودُ إلى «انْكسارِ» قَواعدِ النّحوِ فحسبُ» ولكنّه يَتعدّاه إلى «بنيةِ القِيَم» التي هي سِرُّ وُجودِ اللُّغة.

«العُنفُ اللّسانيُّ صفةٌ مَنبوذَة»[2] تَنبذُها المَعاجمُ اللغويّةُ والتَّعريفاتُ التي تَرى العُنفَ ردَّ فعلٍ غَير مُتَّزِنٍ عَلى قولٍ أو فعلٍ أو وَضْعٍ أو ظاهرةٍ تَرفعُ عن المتكلّمِ القُدرةَ على التّحكُّم في اللّغةِ فيلجأ إلى عبارات وصيغٍ منحرفةٍ في الكلامِ، وتجدُ اللغةَ توثّقُ بقِيَمِها الإيجابيّةِ

(1) عَبد الرحمن عزي، فقه اللغة وعُنف اللّسان والإعلام في المَنطقَة العربيّة، بَحث منشور في كتاب جَماعي بعُنوان: اللّسان العَرَبي وإشكاليّة التّلقّي، سلسلة كُتب المُستقبَل العربي (55)، نشر مَركز دراسات الوَحدَة العربية. بيروت، أغسطس 2007م، ص:13.

(2) عَبد الرحمن عزي، فقه اللغة وعُنف اللّسان والإعلام في المَنطقَة العربيّة، ص:16.

الصّلةَ بين المتخاطبين، وتجدُ تعريفاتٍ سلبيّةً للعنف والتّطرُّف في مَعاجم اللغة تبعاً للبنية القَيميّةِ، فتلك البنية تقسّمُ العبارات إلى كلمة طيّبَة «تحملُ مخزوناً قَيْمياً» وأخرى مُناقضةٍ للقيم، «والكلمة القيميّةُ تتّصفُ بالصّوابِ والصّدقِ والعَدلِ والحقّ»، وقدْ بَيّن القُرآنُ الكَريمُ قيمةَ الكلمة الطّيّبَة وشبّهها بالشّجرةِ الطّيّبَة المُثمرةِ، وكذلك الأحاديثُ النبويّةُ التي تحثُّ على أدب الكَلام وحُسن الانتقاءِ للعباراتِ أو الصّمتِ، فتلك معاييرُ التفاضُل بين الكلمات والعباراتِ تتحكّمُ فيها بنيةُ القيم.

ويشمل العُنفُ اللغويُّ أيضاً أساليبَ الإساءَة إلى الغَير وتجاهله والاعتداء عليه وإهانته، بما يُعجّلُ بتفكيك الروابط الاجتماعية، ويشملُ أيضاً النمطَ الجديدَ من الحياة الاجتماعيةِ، وتكثُرُ عباراتٌ متداوَلة في مواقف اجتماعية كثيرة تعبرُ عن الرداءَة في الأخلاق والمعاملات وعن انقلاب القيَم إلى ضدِّها، «ويَعْني هذا إدخالَ بنيةٍ أخرى «إفْساديةٍ» في المعنى والمبنى»[1]، وللإعلام أثرٌ واسعٌ في نشر العُنفِ اللغويّ وذلك بنشر الأساليبَ العنيفَة في طُرُق عرض الأخبار وإظهار الوَجه المُثير للجَدَل في الأخبار، وإشاعَة نماذجَ من الاستجابات وردود الفعل السلبيةِ[2]، ومن مَظاهِرِ خطابِ العُنف في الإعلام تَدَنّي نَوعية الخطابِ الذي تُنتجه الصحافَة وهو انعكاس للخطاب اليوميّ الذي يُتداوَلُ في المجتَمَع.

(1) عَبد الرحمن عزي، فقه اللغة وعُنف اللّسان والإعلام في المَنطقَة العربيّة، ص:22.

(2) يُنظرُ كتاب: الإعلام العَرَبي وانهيار السّلطات اللّغويّة، نَسيم الخوري، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، 2005م.

ولكنّ العربيّةَ مرّت بفتراتِ اضطرابٍ وتَراجعٍ في التّطوُّر ومالَت «إلى التعبير بالمُشافَهَةِ في عُهود الانحطاطِ»، وزادَ المُستعمرُ على ذلكَ بإسقاطِ القيم الإيجابيّةِ التي في اللغةِ عندَما دَعا إلى استعمال الدّوارجِ العامّيّة المحلّيّةِ عند التحاوُر والتعلُّم، وفُتحَ البابُ أمامَ تلك الدّوارجِ لاقتباسِ استعاراتِ لغات المُستعمِرِ، فأخذ «العُنفُ اللّغويّ» يَتفاقَمُ وترتفعُ درجاتُه مع «ابتعادِ فِعْلِ الكلامِ عن القيمَة واللّغةِ الأصليّة». ولَم يَكن البنيويّونَ موَفَّقينَ عندَما عَزَلوا بنياتِ اللغاتِ عن قيمها الاجتماعيّة والْتَمَسوا بنيَةَ اللّغة من داخِلِها.

إنّ العُنفَ الذي تُصابُ به اللغةُ يُصيبُها من جهةِ كَونِها كَلاماً أي من جهةِ الاستعمالِ التَّداوليّ للأفْرادِ، «وقَد تَعرَّضَ كثيرٌ من اللغاتِ مع الزَّمن إلى التَّغييرِ، بل إلى التَّدمير، تبعاً لاستخدامِ الفردِ للغةِ والتَّطوُّرِ الاجتماعيّ والعَلاقَة باللغاتِ الأخرى...» فالاستخدامُ الفَرديُّ للغةِ قد يُحدثُ خلَلاً ويُلحقُ اضطراباً. وهكذا فاللُّغةُ مُصابةٌ بنوعٍ من العُنفِ يأتيها من جهةِ المتكلِّمِ بها، ويَزدادُ هذا العُنفُ لذي يُفسدُ عليْها جَمالَها ورونَقَها وقيمَها، مع ابتعادِ فعلِ الكلامِ عن «القيمَة» واللّغةِ الأصْليَّةِ. ومن مَداخل العُنف الميلُ إلى العامياتِ والدَّوارجِ لتَطعيم اللغة بها، ومن المَداخل كثرةُ استعمالِ العباراتِ المُسيئة، وتَحريكها دلاليا وإنعاشها تداولاً واستعمالاً، على حسابِ العباراتِ المُضادَّةِ.

ثامنا . الخِطابُ المُضادُّ للعُنف والتَّطرُّف: خطابُ الفَهم والتّحليل

يُقابَلُ خطابُ التّطرُّف الذي يُنتجُه أصحابُه، بخطابٍ مضادٍّ يُبنى على إعداد الضّوابط اللّغويّةِ لفهمِ النّصوصِ وفقَ المقاصدِ، ومُراعاةِ ظروف الزّمانِ والمَكانِ، ومراعاةِ الأحوالِ والمَقاماتِ.

لا شكّ في أنّ الإنسانَ يَحيا بمُعجمٍ ذهنيّ من الكلماتِ والمُصطلحاتِ والمتلازماتِ اللفظيّةِ والاستعاراتِ، التي يُعبّرُ بها عن المَفاهيم والصّورِ التي في ذهنِه؛ وفي ذلك يَشترطُ أصوليّو الفقه كالإمامِ الجُوينيّ (ت478هـ) العلمَ بلسان العَرَب؛ «اَلقَولُ في اللغات ومأخَذِها وذكر ألفاظٍ جرى رسم الأصوليين بالكلام عليها: اِعْلمْ أن مُعظمَ الكلامِ في الأصول يَتعلقُ بالألفاظِ والمعاني [...] أمّا الألفاظُ فلا بدَّ من الاعتناءِ بها فإنّ الشَّريعةَ عربيةٌ ولن يَستكمِلَ المرءُ خلالَ الاستقلالِ بالنَّظرِ في الشَّرعِ ما لم يَكُنْ رَيّاناً مِن النّحو واللّغةِ»[1].

واشترطَ الإمامُ الشاطبيُّ (ت790هـ) الشرطَ نفْسَه، وهو «أنْ يَكونَ الاعْتِنَاءُ بالمعاني المَبْثوثَةِ في الخِطابِ هو المَقْصودَ الأعظَمَ، بِناءً عَلى أنّ العربَ إنّما كانَتْ عِنايَتُها بالمَعاني، وإنّما أَصْلَحَتِ الألفاظَ مِنْ أَجْلِهَا، وهذا الأَصْلُ مَعْلومٌ عِنْدَ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ؛ فَاللَّفْظُ إنّما هو وسِيلَةٌ إلى

(1) الإمام الحَرَمين أبي المَعالي الجُوَيْني، البُرهان في أصول الفقه، تحقيق: صَلاح بن محمد بن عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتُب العلمية . بيروت، ط.1، 1418هـ. 1997م، 43/1.

تَحْصيلِ المعْنى المرادِ، والمعنى هو المَقْصودُ، ولا أيْضًا كُلّ الْمَعانِي، فإن المعنى الإفرادي قد لا يُعْبَأُ بِهِ، إِذَا كَانَ الْمَعْنَى التَّرْكِيبِيُّ مَفْهُومًا دُونَهُ »[2].

وهكذا، فإذا فاتَ المرءَ العلمُ باللغة والخطابِ اللغوي وما فيه من دلالات وألوان تعبيريةٍ، فاتَه الفَهمُ والتحليلُ والاستنباطُ. فالعلمُ باللغة ودلالاتِ الخطابِ شرطٌ في الفَهم والتحليل والتأويل. فإنّ فهمَ النصوص إنّما يَكونُ وفقَ سنن العربِ في كلامِها، ومَن خرَج عَن مَعهود العربيّةِ لم يَستقمْ له فَهمٌ لنصوصِ الشريعَة، وأيُّ فعلٍ فعلَه إنّما يَكونُ ناتجاً عن جهلٍ بالعربيّة[3].

الخطابُ المُضادّ لخطاب التّطرُّفِ خطابٌ نقديٌّ تحليليٌّ، مبنيّ على الوعي بآليات المجتمَع وقَوانين سَيْره:

العلمُ بالآلياتِ مَدخلٌ إلى العلم بقَوانين المجتَمَع وأنماط تفكيرِه وعَيْشه... وعلى رأس الآلياتِ علمُ الاجتماع؛ فإنّه يَنطوي على تفسيرات مهمّةٍ لحياةِ الأفراد والجَماعاتِ، وذلكَ ما أكَّده «س. رايت مِلْز» عندما تحدَّث عن المُخيِّلَة الاجتماعيّة، وما أثبتَه «أنتوني غدنز» عندَما ذهَبَ إلى أنّ علمَ الاجتماع يُمكّننا من رؤيَةِ العالَم الاجتماعي من زوايا غير التي لَديْنا، وكلَّما فَهمنا أسلوبَ حياة النّاسِ سهُلَ فَهمُ مُشكلاتهم، وكلُّ سياسَة عمليّةٍ أو نهجٍ ما في الحياةِ الاجتماعيّة، إن لَم يَنطلقْ

(2) أبو إسحاق الشاطبي، الموافَقات، دار ابن عَفّان، الخُبَر. المملكة العربية السعودية، ط.1، 1417هـ. 1997م، 2/138.

(3) انظرْ ما ذكَرَه الإمامُ الشافعيّ عن وُجوب العلم بلسان العَرب قَبلَ فَهم النُّصوص الشرعية والاستنباط منها: الرسالة، للإمام الشافعي، ترجمة. أحمد شاكر، مكتبه الحلبي. مصر، ط.1، 1358هـ. 1940م، ص:42.

من وَعي مباشر لمسارات المُجتَمَع فمآلُه إلى الغموض والفَشَل؛ يَقول عالِمُ الاجتماع «أنتوني غدنز» في كتابه «علم الاجتماع»: «يَستطيعُ علمُ الاجتماع بوسائلَ أخرى أكثرَ أهميةً أن يزوّدَنا بالوعي وتَعميق الفَهم لأنفسنا، وكلما ازدادَت مَعرفتُنا بالبَواعثِ الكامنةِ وراءَ أفعالنا وبأساليب عَمَل المُجتمَع الذي نَعيشُ فيه، تعزَّزت مَقدرَتُنا على التأثيرِ في مُستقبلِنا... »[1].

يُسعفُنا التحليلُ النقديُّ الاجتماعيّ للخطابِ بأن نَرى التطرُّفَ عبارةً عن تشوُّهٍ معرفيٍّ يَحملُه خطابٌ مُشوَّهٌ فكرياً ونفسياً، مكوّن من أفكارٍ غيرِ منطقيّةٍ «تَحدُّ من قُدرةِ الفردِ على التّحكُّمِ والضّبطِ عند مواجهَةِ المواقفِ والمُشكلاتِ »[2]. ومن مَظاهرِ هذا التّشوُّه المعرفيّ إنتاجُ خطابٍ شفويّ أو مَكتوب يَحملُ أفكاراً ومعلوماتٍ مغلوطةً يَعتمدُها صاحبُها عندَ المواقفِ وحلِّ المُشكلاتِ، وقد يَبحثُ لها عن البراهين المؤيّدَة فيؤولُها وفقَ رؤيته ببعض النّصوصِ الشّرعيّةِ، يُسوّغُ بها مواقفَه الجانحَة.

أمّا الخطابُ المضادُّ لخطابِ التّطرُّفِ فمِن مُقوّماتِه تَصحيحُ المَفاهيم وإشاعَةُ مُعجَمٍ من الكلماتِ التي تَدخلُ في السياقِ، نحو:

(1) أنتوني غِدِنْز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصُّيّاغ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 2005، ص:53.

(2) محمود عبد المجيد عساف، دَوْر الجامعات في علاج التَّشوُّهاتِ المعرفيّة ونَشر ثَقافَة الوَسَطية والتَّسامُح لَدى طلبتها [دراسة مَيدانيّة]، بَحث منشور ضمنَ: الأعمال الكاملَة للمؤتَمَر العلميّ الدّوليّ «أزمَة الفَهم وعَلاقتها بظاهرة التّطرُّف والعُنف»، وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة، غزّة، 2017م، ص:1637.

الاعتدال، والوَسَطيّة، والتّسامُح والصّفْح، وسلامَة الصّدرِ، والإخاء، وأدب الحوارِ، والانفتاح على الآراءِ والأفكارِ، واحترام آداب المُناظرَة والحِجاج، وبِناءِ خِطابٍ مُعتَدلٍ مُتَّصلٍ بحكَمةِ تَنميةِ المُجتَمَع، مَع حُسن فَهمٍ لمُحكَماتِ الشَّريعة وقُوَّةِ انتماءٍ إليها وقُدرةٍ على الإقناعِ بها بالتي هي أحسَنُ، ويَمتلك في المساحاتِ الاجتهاديَّةِ المُرونَةَ والمَهارةَ والآدابَ الكافيةَ، والقُدرةَ على فَهم الأطروحاتِ الفكريّةِ المُعاصرَةِ وفَحصِها ونَقدِها «وغيرها من القِيَمِ التي تَنشرُ مُعجَمَ المَحبّةِ والأمنِ والسلمِ في المجتمَع»[3].

بل يُمكنُ استخدامُ الاستعارَةِ نفسِها لتَلْيين المَواقفِ وتَرْشيدِ الخطابِ؛ تأمَّلْ بَلاغَةَ الاسْتِعاراتِ في الخِطابِ الإعْلامِي مثلاً: «اَلمساعي الناعمَة لدَوْلَةٍ ما تُدوّرُ زَوايا الخِلافِ وتُنقذُ التَّفاهُمَ....»؛ وُصِفَت المَساعي، وهي أفعالٌ معنويّةٌ، بصفة حسّيّةٍ وهي النُّعومةُ، وفيها مَعْنى التودّد والرَّجاءِ بذِكْرِ المَزايا وطَيِّ ذكْرِ غَيْرِها، لنَيْل المَرامِ.واستُخدِمُ المُصطَلَحُ الاقتصاديُّ «التَّدوير» وفعلُ التَّدويرِ مُسْتَعار من حَقْلِ الموادِّ المُستعمَلَة في حَياةِ النّاسِ، وأثرِها في البيئَةِ نَفْعاً أو ضَرَراً، وكأنّ زَوايا الخلافِ بين الأطراف المُتَخاصمَةِ، صالحَة للمُراجَعَة وتَقليبِ وُجوه النَّظرِ لرَفْع الشُّبْهَةِ. ثمَّ مَفْهوم «إنقاذ التَّفاهُم» الذي استُعيرَ صفةً لمَعْنىً وهو في الأصلِ صفةٌ للإنسان أو الحَيوان،والمقصودُ بالإنقاذِ الإنقاذُ من خَطَرٍ مُحدق، فأصبَحَ التَّفاهُمُ، وهو مصدرٌ وفعلٌ من الأفعال المعنويةِ،

(3) محمود عبد المجيد عساف، دَوْر الجامعات في علاج التَّشوُّهاتِ المعرفيّة...، ص:1637.

كالإنسانِ المَرْعيّ المُتَعَهَّدِ بالاهتمامِ، فجُرِّدَ من التفاهُمِ كائنٌ مَحْروصٌ على إنقاذِه وإحاطَته بالعنايَة البالغَة.

وهكذا، فالانحرافُ الفكريّ الذي يَقودُ إلى انحرافٍ في السّلوكِ والخُلُقِ، صادرٌ عن تشوُّهٍ في المَفاهيم وسوءِ تصوّرٍ للأشياءِ. واعْتدالُ الفكْرِ يَقودُ إلى استقامةٍ في السُّلوكِ.

تاسعا. تطرُّفٌ في مواجهةِ التّطرُّف

ولكنَّ دولَ الغربِ التي تصدت لمكافحَة الإرهاب لم تكنْ جادّةً في حَرب الإرهاب واستئصاله بطريقة منهجيةٍ عَقْلانيةٍ موضوعية، بل يُلاحظ المحللون والمشتغلون بملف التطرف والإرهاب أنّها تتساهَلُ مع مواطنيها في تَصعيد الحَرب على الجاليات العربية والمسلمَة وتهويل صورة الإسلام والمسلمين وإثبات أنّ الإسلامَ مصدر الإرهاب؛ فقَد حذَّر تقريرٌ بريطانيّ من زيادة الضّغط على أبناء الجاليةِ المُسلمَة في المملكة المتّحدَة؛ لأنّ السلطات تحثّ الجاليةَ على بَذل ما فَوق طاقتهم لمواجهة التّطرُّف وأنّ زيادةَ الضّغطِ قد تَنتهي بالجاليَة على العُزوف عن الأمر وقلّة الاهتمام بالانخراطِ في جُهود المكافَحَة. وقَد صَرَّح رئيسُ جهازِ مُكافحَةِ الإرهاب في بريطانيا، ماكس هيل (Max Hill)، أن متطرفينَ من تنظيم الدولة يخططون «لهجمات عشوائية على مدنيين أبرياء» في بريطانيا، على نَحوِ الهجمات التي شنّها الجيشُ الجمهوري الإيرلندي قبل أربعينَ عاماً. وصرّح في مقابلة مع صحيفة «صنداي تليغراف»، أن «المتشددين يستهدفون المدن، ويشكلون مخاطر هائلة مستمرة، لا يمكن أحداً تجاهلها»[1]. فالجاليةُ المسلمةُ لا تعرفُ ما هو «المَزيد»

(1) انظرْ: موقع «جَريدَة العربي الجديد» 26 فبراير 2017م.
وانظر عنوان المقال:
Terrorchief Max Hill warnsrisk of attacks in Britainishighestsincedarkdays of IRA
في صحيفَة التلغراف نيوز:
http://www.telegraph.co.uk/news/25/02/2017/terror-chief-max-hill-warns-risk-attacks-britain-highest-since/

المَطلوب منها، ومن ناحية أخرى ترتفعُ في بريطانيا دَرجَة التخويف من الإسلام (Islamophpby) خاصة إن لم ينخرط أفراد الجاليَة في الثقة في الأجهزة الأمنية وفي استراتيجية الوقاية (Prevent) المختصة في احتواء الفكر المتطرف، عبرَ الإبلاغ عن كل مَن يُحتَمَل انتسابه إلى جماعة إرهابية، الضغط على أفراد الجالية يُقلل من فُرص نَجاح استراتيجية «الوقايَة» (Prevent).

ولكنّ ظاهرة التخويف من الإسلام (Islamophpby) حَمَلَت خبراءَ وإعلاميين وممثلين للمجتمع المَدَني على التنديد بالظاهرة والتصريح بأنّها تتعارض وميثاقَ الأمم المتحدَة والإعلان العالَمي لحقوق الإنسان، وطالَبوا بالتصدي للظاهرَة وبمَن يقف وَراءَها وأنهم ينبغي أن يُعامَلوا على أنهم جَماعات كارهة للسلام قَبْلاً ومخالفَة لحقوق الإنسان.

ولمواجهَة مدّ العُنصريّة ضدّ الإسلام والمسلمين في الغَرب التي تزداد اشتعالا مع صعود اليمين المتطرف، نبّه عضو المجلس الإسلاميّ في الدّانمارك السيد عبد الواحد بيدرسون أنّ الإسلامَ في أوربا قَديم دخل البلقانَ منذ أكثر من خمسة قرون، وعليه فليسَ المسلمون في أوربا غُرباءَ أووافدين من الآفاق، بل هم مواطنون كاملو المواطَنَة. وبمِثْل ذلك قال الدكتور يحيى محمود هندي الأستاذ بجامعة جورج تاون الذي بيّن أنّ المسلمين في الغرب الذين تتراوح أعدادهم بين ثلاثة ملايينَ وعشرة ملايينَ يَعُدّونَ أنفسَهم مواطنينَ لا مستوطنين، ومسلمين أوربيين لا مسلمين في أوربا.

والسبيلُ إلى مواجهة المدّ العنصريّ ومَوجة العَداء للإسلام والمسلمين تَصحيحُ الصورة الذّهنيّة المغلوطة التي استقرت في الفكر الغربي، وتنقيح المناهج الدّراسيّة الغربيّة وخاصّة في مجال التّاريخ[1].

ولكنّ العَداءَ الشديد الذي يُضمرُه اليَمينُ المتطرّفُ للسلام والمسلمين في الغرب، جعلَ حَمَلَةَ هذا الفكر يُثبتون بدراسات وإحصائيات أن المسلمين بعد عُقود من الزمن سيكونونَ الأغلبيةَ في أوربا، وسيُساعدهم البناء الديموقراطي للدولة على الوصول إلى مراكز صنع القَرار، ولهذا لا بدّ من إعداد مجموعات تتحرك لكي لا يتحققَ هذا الأمر. وأخطر أدوات انتشار هذا الفكر المُرْعِب «وَسائلُ الإعلام» بأساليبها وطرُقها المختلفَة، فقَد بذلَت جهودا ضخمةً في نشر مَشاعر الخَوف ونشأت كثير من الجَماعات والمنظّمات على «نظرية الكَراهية للآخَر»، تُنتجُ «خطابَ الكَراهيّة».

وهناك مؤلفاتٌ مهمّة كَشَفَت عن الخطط الجديدَة في شنّ حملة الكراهيّة والعَداء المنظّم والتّخويف المُمَنهَج.

1. منها كتاب:

- The Mighty and the Almighty: Reflections on America, God, and World Affairs, by Madeleine Albright (Harper CollinsPublishers 2006).

(1) انظر التفصيل في تَقرير عن «نَدوة الأقليات المسلمة: تحديات الانتقال من التوطين إلى المواطَنَة»، انظر: مجلة رابطة العالم الإسلامي، عدد:610، أغسطس 2017م، ص:13. 17.

لوزيرة الخارجية الأمريكية السابقَة مادلين أولبرايت عالَجَت فيه كيفَ تزاوَجَت المؤسستان السياسية والدينية، تَزاوجاً غيرَ مقدَّس، فأصبح متجذّرا في المؤسسة السياسية الغربية.

2. الكتاب الثاني:

- Our Endangered Values: America's Moral Crisis, by Jimmy Carter, New York, NY: Simon & Schuster, 2005.

تحدثَ فيه عن الأزمَة الأخلاقية في المؤسسة السياسية الأمريكية بسبب هذه التَّوأمَة غير المقدَّسَة، وأنها ستَقضي على التعدد الفكري والديني والحزبي.....

3. الكتاب الثالث:

- Prophecy and politics: Militant evangelists on the road to nuclear war, The secret Alliance beetween Israel and the U.S Christian Right, by Grace Halsell, Lawrence Hill & company, 1986.

لآرثر جريس هالسل، وفيه كَشف لليمين المتطرف كيفَ أنه في خطاباته يستعجل ظهور المسيح، بتحصيل التزاوج بين الدين والسياسة.

مصدرُ تَجريمِ الغربِ للعالَم الإسلاميّ وتَخويفِ الناس من المُسلمين وتَشويه صورَة الإسلامِ، هو أنّ صانعَ القرار السياسيّ في الغرب والمثقفَ ورجلَ المال والأعمال يُركّزون على الجَوانبِ والصفاتِ السلبيّةِ والمَثالبِ ويَصرفون أبصارَهُم عن كلّ حسَنَةٍ.

عاشرا . خطابُ الفهمِ للظواهرِ والاستنباط منها بين الثبات والتغيُّر

يتغيّرُ خطابُ الفَهم والاستنباطِ بتغيُّر الزّمانِ والمكانِ والأحوالِ والنّيّاتِ والعَوائد؛ فقَد نصَّ الفُقَهاءُ على أنّ من الأحكامِ نَوعاً يتغيرُ بحسبِ اقتضاءِ المصلحَةِ له زَماناً ومَكاناً وحالاً[1]... فإنّ الشرعَ يُنوّعُ فيها بحسب المَصلحةِ[2]. فليْسَ خطابُ الأحكامِ ثابتاً مُتصلِّباً يُطبَّقُ على جميعِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنةِ؛ وذلكَ لأنّ فِقْه الواقعِ أو العلمَ «بآلياتِ» الواقعِ من الوَسائلِ المهمّةِ التي يُتوَسَّلُ بها لفَهم نُصوصِ الكتابِ والسُّنّةِ، ثُمّ تطبيقِها على الواقعِ، ومَن تَصوّرَ خطابَ الفهمِ وآلياتِ الاستنباطِ مُتصلِّباً ثابتاً فقَد تطرَّفَ أي اتَّخذَ مَوقعاً مُعتزلاً مُنعزلاً بَعيداً عن الأنظارِ مُستبيحاً مَواردَ الأخطارِ.

إنّ الفهمَ مَلَكَةٌ مرتبطةٌ باللغة مشتبكةٌ بها، وهما متفاعلان تفاعلاً يُبيّنُ أنّ حصرَ اللغةِ في الغايةِ التّواصليّةِ اختزالٌ لَها وحصرٌ مُجحِفٌ، وأنّ ادّعاءَ ذلِكَ قَصرٌ للغة على مظهرٍ سطحيّ واحدٍ وزعمٌ

(1) ذكَروا أنّ الإمامَ الشافعيَّ رحمه الله أمْلى في مصرَ كُتباً تخالف في كثير منها ما كان أملاه بالعراق، وسببُ ذلكَ أنّه تَجَدَّد له من العلم بالنصوص ووُجوه دلالاتِها ما لم يكُنْ عندَه من قبلُ، وضبط من الأصول والقواعد ولَقِيَ من العلماء ما جَعَلَه يَستفيدُ من أقوالهم ويَحملُه على تغيير قوله في كثير من المسائل، ولهذا فإنّ الكتبَ التي وَضَعَها بمصر، أحْكَمَها أكثر ممّا أحكمَ الكتُبَ التي وَضَعَها بالعراق؛ فلمّا رجع إلى مصر أحكَمَ ذلكَ. انظر: باب ما جاءَ في قُدوم الشّافعيّ مصرَ وتَصنيفه بها الكُتبَ المصريّةَ الجديدةَ وانتفاع المُسلمين بها: مَناقب الشّافعيّ، لأبي بَكر أحمد البَيْهَقي (ت458هـ)، ترجمة: السيد أحمد صَقر، مَكتبة دار التّراث. القاهرَة، 237/1.

(2) أبو عبد الله ابن قيّم الجَوزيّة، إغاثةُ اللّهْفان في مَصايد الشّيطان، ترجمة: محمد عريس شمس، مطبوعات مَجْمَع الفقه الإسلامي جدّة، دار عالَم الفوائد للنشر والتوزيع، ص:570.

بوحدةِ البُعدِ، وإلغاءٌ للأبعادِ الأخْرى وزَوايا النّظرِ الكَثيرَةِ، التي يَجمعُها ويوحِّدُها أنّ اللغةَ قُدرةٌ ومَلَكَةٌ ومَهارةٌ باطنةٌ في المَرْءِ، فاللغةُ ملَكَة نفسيّة عَميقةُ الجُذور ومُشتبكةٌ معَ الملَكات النفسيّة الأخرى، فلا قدرةَ على عَزلِ ما هو نَفْسي ذِهْنيٌّ عَمّا هُوَ لغويّ منها، وإذا ادّعْينا أنّ اللغةَ أداةُ تَواصُل فليسَ بصيغة الإطلاقِ، بل ينبغي أن نتصوّرَ التواصُلَ والحجاجَ والتبليغَ وَسائلَ خارجيّةً تُحرّكُ الملَكَة الباطنةَ وتُتيحُ لها تشكُّلاتٍ متنوّعةً وظُهوراً بمَظاهرَ شَتّى، وبما أنّ اللغةَ البشريّةَ تتضمّنُ طاقةً إبداعيّةً مُضْمَرةً هائلةً وقُدراتٍ لا تَنتهي ولا تَنحصرُ بانحصارِ المَقاماتِ الخارجيّة والمُثيراتِ؛ فإنّك تَجد لها قابليّةً هائلةً للتلاؤُم والتناسُب مع الأوضاع الخارجيّةِ والمُطابَقَة بين بنياتها وبنيات المَقامِ، والاشتباك بعناصر تداوليّة واجتماعيّةٍ خارجيّةٍ، فيُساعدُ الدّاخلُ الذي هو بنياتُ اللغة [وهو الأصلُ في الخَلْق البَشَريّ والذّكاءِ البَشَريّ] الخارجيَّ الذي هو الأحداثُ ودَواعي التّعبير، فتنشطُ البنياتُ اللغويّة عندَ اقترانها بالبنياتِ الاجتماعيّة والثقافيّةِ الخارجيّةِ، والمَعْلومُ أنّ البنياتِ اللغويّةَ لا تتحرّكُ ولا تَقْترنُ بالمُثيراتِ المَقاميّةِ إلاّ بعدَ أن تَستندَ قَبْلاً إلى البنياتِ الذّهنيّةِ والأنساق العَقْليّةِ، فنحنُ إذنْ، أمامَ أبْعادٍ ثَلاثَةٍ عندَ حَديثنا عن البنياتِ اللغَويّةِ، وإذا قَصرْنا اللغة على مَفْهومِ الوظيفيّة Functionnality فسنُهملُ. جَهْلا منّا وغفلةً. مُتعلّقاتها الذّهنيّة والنّفسيّة، وهذا خطأ ارتكَبَه الوظيفيّون السّابقونَ وارتَكَبَ بعضَه التّداوليّون عندَما قَصَروا خطابَهُم العلميّ على البُعد الاجتماعيّ الواحدِ، وأغفَلوا هذه الملَكَة العَظيمَةَ التي تُرسلُ إشاراتٍ بامتلاكِ المرءِ نُبوغاً وعبقريّةً لا حُدودَ لها، وامتلاكِها في ذاتها نشاطاً حراً وقُدرةً

هائلةً على التغيُّر [لا التّطوُّر؛ فالذي يتطوّرُ هو القُدرةُ اللغويّةُ لا اللغةُ] والانسيابِ مع الدّواعي والأحداث والتّجاربِ والغَوصِ في أدقّ مواقفِ التّعبير النّفسيّ والفكريّ، إنّ اللغةَ وُجدَت لإنتاجِ الفكرِ وصياغتِه ولم توجَد لتكونَ أداةً كأدوات الحِرَفيّينَ، لأنّ الإنسانَ يشتَملُ على أنظمة تَواصُلٍ متعدّدةٍ غير أنّ اللغةَ أرقاها لأنها متلبّسةٌ بالوظائفِ الذّهنيّة والمَلَكات النّفسيّة التي جَعَلَت من اللغةِ المَهارةَ الأرْقى والطّريقةَ المُثْلى، فلو تأمّلتَ طريقةَ تَصميم اللغةِ المُعقَّدَ في الذّهنِ البشريّ لَوَجَدْتَ أنّ إخْراجَها والتّوسُّلَ بها جانبٌ ضئيلٌ جداً لا يَكادُ يُوازَنُ بِما للغةِ من قُوّةٍ على إنتاج الأفكارِ وتفسيرِ طريقَة الإنتاجِ، أمّا الطّريقةُ التي تَخرجُ بها من جهازِ النّطقِ على هَيْئةٍ بنياتٍ صوتيّةٍ مختلفةٍ من لغةٍ إلى أخْرى فهي الجُزْءُ الأصغرُ في موضوع اللغة والحَديثِ عن اللغةِ. والغَريبُ في الأمر أننا لا نتحدَّثُ عن اللغةِ. في اللغويّاتِ القَديمَة وبعض الاتجاهات المُعاصرَة. إلاّ بعدَ خُروجها وإخْراجها على هيئة أصواتٍ وبنيات صرفيّة وتَركيبيّةٍ، ولا نتحدّثُ عن أشكال لغويّةٍ أخرى لا تَكادُ تنحصرُ في التّعبير عن الدّاخلِ، لا نتحدّثُ عن أشكالٍ أخْرى حسّيّةٍ غيرِ صوتيّةٍ وعن إشاراتٍ مَرئيّةٍ، فهي أشكالٌ تعبيريّةٌ غيرُ مستقلّةٍ عن اللغةِ بل هي متّصلةٌ اتصالاً شديداً بها، اتّصالاً يمرّ عبر القَنواتِ الذّهنيّة والمَسالك العَقليّة قبلَ الخُروج إلى الدّلالَة على الأشياءِ، اللغة في نهايةِ المَطافِ نظامُ إنتاجٌ وابتكارٍ، وتَفسيرٌ للذّهنِ.

وبناءً على هذا البَيان نرى أنّ ظاهرةَ التّطرُّفِ وأزمَةَ الفَهمِ والخطابَ المعبّرَ عن المَواقِف واجهاتٌ لحركةٍ واحدةٍ، وأُسسٌ مُشتركة لمظاهرَ مُختلفةٍ في الظّاهر. ويتحَصَّلُ منه أنّ دراسةَ ظاهرة التّطرّف وأزمة

الفَهم تجدُ طَريقها في الحَمولة اللغويّةِ؛ فالخطابُ اللغويُّ يَختزلُ تصورَ صاحبِه للعالَم والأشياءِ والأحياءِ.فتحليلُ خطاب التّطرُّف وتَفكيكُ أطرافه يُساعدُ على التّعرُّف على أسبابِه ومَناشئِه ليسهلَ التّصدّي له ونقْد مَفاهيمه ومُصطلحاته[1].

يُنتجُ التطرُّفُ خطاباً لغوياً مبنياً من أحكامٍ يُصدرُها على الجهاتِ التي يُدينُها، ومن خَصائصِ هذه الأحكامِ أنّها مَوصوفةٌ بالعُنفِ والتّطرُّفِ والكُفرِ والإخراج من الملّةِ والرّمي بالتُّهَم التي يُجرَّمُ عليْها المُتَّهَمُ إن ثَبَتَت في حقّه، ولا يُمكنُ مُعالجَةُ خطابِ التطرُّفِ إلاّ بخطابٍ تَحليليّ نَقْديّ مُضادٍّ مُفكّكٍ للمَفاهيم، واضعٍ اليَدَ على مَظاهرِ التّشوُّه المعرفيّ والآفاتِ الفَهميّةِ، والجُنوح عن مواقفِ الوَسطيّةِ والاعتدالِ الطّبيعيّةِ، ويُعدُّ التّطرُّفُ جُنوحاً في الموقف وانحرافاً في التّصوُّرِ يبدأ أولاً من الانحراف في مَجالِ المَفاهيمِ، وهو انحرافٌ مَصدرُه قُصورٌ في المَحاضنِ التّربويّةِ،

(1) يَنحِتُ التّطرفُ لُغَتَه من العباراتِ الاستعاريّةِ فيَبني خطاباً مَصوغاً صياغةً بلاغيّةً قوامُها الاستعاراتُ؛ كَما سَنَرى في هذا البَحث، وقوامُها أيضاً المتلازماتُ اللّفظيةُ أو المُتلازماتُ الاصطلاحيةُ أو المُصاحبات Collocations والمتلازماتُ موضوع مفيدٌ جدا يدخُل في ميدانِ تحليل الخطابِ ولسانياتِ النّصّ؛ فالمُتلازماتُ الاصطلاحيّةُ سُمّيَت مُتلازماتٍ لأنّ ألفاظَها يُلازمُ بَعْضُها بَعْضاً، ووُصِفَت بالاصطلاحيّةِ لأنّها ظلّتْ مَسْكوكَةً على هيئةٍ واحدةٍ، وأصبَحَت تُتَداوَلُ بين مُستعْملها على هيئتها هذه من غيرِ زيادَةٍ أو نُقْصانٍ أو تَغْييرٍ، وأضْحَتْ مادّةً مُعجميّةً تفْرضُ نفْسَها على مُصنّفِ المَعاجمِ ومُحللِ الخِطابِ، ومن خَصائصها في الدّلالةِ أنّها قد تتضمَّنُ في التّركيبِ الواحدِ . مَجازاً أو كنايةً أو استعارةً، فإذا فُصِلَت أطرافُها المُتلازمةُ، بعضُها عن بعضٍ اخْتَفَت الدّلالَةُ المَجازيّةُ... ولتقْريبِ الفَهْمِ، أسوقُ تَعْريفَ باحثٍ لغويّ مُعاصرٍ، متخصّصٍ في المُعْجَم هو الدكتور عَبْد الغَنيّ أبو العَزْم: يَقولُ عن المُتلازماتِ الاصطلاحيّةِ: «هي وحدةٌ لُغَويّةٌ اسميّةٌ أو فعليّةٌ مُكوَّنةٌ من كلمتَيْن أو أكثرَ، ينشأ عن ارْتباطِها معْنىً جديدٌ، يَختلفُ كلّياً عمّا كانَت تدلُّ عليه مَعانيها اللّغويّةُ الأصليّةُ منفردةً، حيثُ تنتقلُ بذلِكَ إلى دلالاتٍ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ ونفسيّةٍ واصطلاحيّةٍ». عبد الغنيّ أبو العزم، مَفهوم المتلازمات وإشكاليةُ الاشتغال المُعجماتيّ، بَحث مَنشورٌ ضمنَ مجلة: الدّراسات المعجميّة، عدد:5، ذو الحجّة1427هـ. يناير2006م، ص:34.

التي أساءَت نَقلَ المَفاهيم وساعدَت على نشأة خطابٍ متطرّفٍ مُشوّهٍ، تدلُّ أفكارُه على مَعاني النفور من المُجتَمَع والأسرَة والإدانَة للمُجتَمَع والطّعنِ في عَقيدتِه واختياراتِه، والتّشنيعِ بقيمه الخُلقيّةِ والدّينيّة واتهامها بأنّها قيمٌ مُبتَدَعَة بَعيدة عن الأصول والصوابِ.

ويُعدُّ الشبابُ أكثرَ الفئاتِ الاجتماعيّةِ عُرضةً للسُّقوطِ في مواقفِ التّطرُّف وأكثر استعداداً لإنتاج خطابِ التطرُّف، ويُختصرُ مَضمونُ الخطابِ في ردّات الفعلِ النّفسيّةِ والاجتماعيّة التي تُقرأ في خطابِ التّطرُّفِ، ومفادُ هذه الرّدّاتِ أو الاستجاباتِ السّلبيّةِ أنها تَعبيرٌ عن الانزعاجِ الشديد من التّحوّلاتِ العالَميّةِ في الميادين المُختلفَة حتّى صارَ الشبابُ يشعرُ بحالةِ الضّياعِ والتّمزُّقِ والانفصامِ، وحالة التيه والغُربَة، أعانَ عليْها السيلُ العَرِمُ من المعلومات المنثورَة في الإعلام والشبكة العالَمية الذي يَنصبُّ في كلّ ثانيةٍ، فتحوَّلت النّفوسُ إلى ذواتٍ مُضطربةٍ قلقةٍ لا تستقرُّ على حالٍ ولا يُعوَّلُ عليْها في شيءٍ.

أمّا التطرُّفُ السياسيُّ الممنهَجُ التي تَنْحوه الدّوَلُ فيدلُّ على أنّ الدّولَ المتطرّفَةَ التي تشنُّ الحروبَ الطّاحنةَ على غيرِها تستعملُ بعضَ الكلماتِ والعِباراتِ ذاتِ الواجهَة المُسوّغَة لأعمال الرُّعبِ والمَوْتِ: عملية جراحية نظيفة، ضربة استباقية، نيران صديقَة، احتواء الموقف، القَضاء على الإرهاب، نَشر السلام[2]...

(2) انظر كتاب: حَرب الخَليج أو الاستعارات التي تَقتُل، جورج لايكوف، يُبيّنُ فيه المؤلفُ أنّ الخطابَ الذي دفعَ إلى الانسلاكِ في حرب الخليج يمثل نظرةً استعارية شاملة. فلَطالما أشيرَ إلى أننا نفهم الحرب بوصفها لعبة تنافسية، شأنها في ذلك شأن الشطرنج أو رياضة كرة القدم أو الملاكمة. وهي استعارة تحتوي على منتصر ومنهزم واضحين، وعلى نهاية محددة للعبة. وتسلط هذه الاستعارة الضوء على التفكير الاستراتيجي، وعلى فريق العمل، وعلى الاستعدادات، وعلى المتفرجين في الساحة الدولية، وعلى نشوة الانتصار، وعلى صَغَار الهزيمة وذلّها. ويحدد النصر

التّطرُّفُ المُنْهَجُ الذي تسلُكُه الدُّوَلُ الكُبْرى تُسخِّرُ له حَشْداً من النصوص والخطاباتِ السياسيّةِ والإعلاميّةِ، تتَّخِذُها الدّولَةُ بمثابةِ مُسَلَّمات خَفيةٍلا يُصرَّحُ بها، إنَّما الذي يُصرّحُ به العِللُ والمُسوِّغاتُ التي تَعتلُّ بها الدّولةُ المُحاربَة لدولةٍ أخرى أو جَماعةٍ أو تَنظيم، وهو ما بيَّنَه «جورج لايكوف» الذي بَرهن على أنّ الاستعاراتِ تُستخدَمُ للقَتلِ والإبادَة، ما دامَت جزءاً من نَشاطنا الفكريّ المألوف، وقَناةً من قَنواتِ الإقناعِ بحُجّيّةِ الفعلِ المُرتكَبِ؛ فالاستعاراتُ التي نَحْيا بها تُستَغلُّ لجَرائمِ القَتلِ وتَسويغِ النّسَقِ الاستعاريّ للقَتل وتسويغ الهجوم على البشر. الاستعارةُ قد تقتلُ عندَما تُخفي وَجْهَ الحَرب البَشِعَ، وتَعبَثُ بمَصائر النّاس. لقَد دخَلَت الدَّولةُ القاتلةُ بسلاحٍ لغويٍّ إعلاميٍّ استعاريٍّ قَبلَ السّلاحِ المادّيّ الفَتّاكِ. فاستُخدمَت البلاغَةُ للحَرب ولتَهويلِ «خَطَرِالعَدُوِّ» و«رُعبِ العَدوّ» الذي يَنبغي أن يُقاوَمَ بكلّ وَسيلةٍ، والقَصدُ من وراءِ استعاراتِ التّهويلِ التّدخُّلُ لتَخليصِ الشُّعوبِ و«إعادَة تَرتيب المنطقَة»، وإعادَة بناءِ الوَعْيِ الجَديد. إعادَة تَرتيب المنطقَة وفقَ تصوّرٍ اسْتِعاريّ هو ولادَةٌ جَديدةٌ بَعد مَخاضٍ عَسير؛ تأملْ هذه الاستعارَةَ المُسوِّغَةَ لغَزو البلدان العربيّة، بناءً على أنّ الحربَ مَبْدؤُها استعارةٌ وبلاغةٌ:

لنتَذَكّرْ جيداً، كيف كانَ يُنادي بولادة «شرق . أوسط» جَديد بعد المَخاض العسير: ولادَة بعدَ مَخاض، وما يُحيطُ بالمَخاض من آلام التفاعُل وما يُرافقُ الولادَةَ من أوجاعِ الوَضعِ ومن دَمٍ ودموع...

بشكل جيد في الحكاية الخرافية في اللعب. فعندما يتحقق النصر تنتهي الحكاية وتنتهي اللعبة. إلا أن الوضع لم يكن كذلك في أزمة الخليج. فالتاريخ يستمر، ولا يتخذ «النصر» معنى إلا في إطار هذا التاريخ. انظر: حَرب الخَليج أو الاستعارات التي تَقتُلُ، جورج لايكوف، ترجمة: عبد المجيد جحفَة، دار توبقال للنشر . الدار البيضاء، 2005م.

شاعَت هذه الاستعارَةُ فيما بعدُ فأصبحَ كلُّ غَزوٍ وكلُّ اقْتحامٍ وإسقاطِ نظامٍ وتَحويلِ بَلَد إلى أرض خَراب، مُوَطِّأً لَه بتلكَ الاستعاراتِ القاتلَة، بَل انتَقَلَت سياسَةُ «استغلال بلاغَة الاستعاراتِ» إلى الطوائفِ والفِرَق، كالتي تُنادي بإعادَة الخلافَة إلى الغرب الإسلاميّ، والطائفَةِ التي تُنادي بولادَة شَمال إفريقيا جديدة وفقا للأصول العرقية... وما زالَت الاستعاراتُ تفعلُ فعلَها في صَوغ التصور والمَفاهيم وتَشكيل العُقول.

ويَدخلُ في النَّسَق الاستعاريّ للحَرب وتَسويغِ غَزو البُلدانِ، ما عُرفَ عندَ «كارل فون كلاوزفيتز» «الحرب سياسة تقام بوسائل أخرى» واستعارة «السياسة صفقة تجاريّةٌ»، لأنّ السياسةَ النّاجعةَ تُشبهُ التَّدْبيرَ التّجاريَّ النّاجحَ[1].

وإذا عُدْنا إلى «النّسق الاستعاريّ» فيغَزو بعض الدول وجدْنا أنَّ «لايكوف» نَظَرَ إليْه بوصفِه «استعاراتٍ تَجْعَلُ «الأمّةَ شَخصاً» إذ يُصوّر البلدَ . الذي كانَت تَطمعُ في احتلالِ أرضِه قوةٌ أخرى . على أنه شخصٌ إرهابيٌّ هو الرّئيسُ، وأنّ غَزوَ القوةَ لبلاده إنّما تريدُ به إسقاطَ شَخصِه الظّالمِ، ووَقْفَه عند حده. ويَكمنُ وراءَ هذه الاستعارةِ القاتلَةِ مئاتُ الآلاف من القتلى المدَنيّينَ، وآلافُ القنابل التي ستلقى على رؤوس أهل البَلَدِ. وبذلكَ تُصبحُ الاستعارةُ أداةً للقَتل.

(1) يَرى كارل فون كلاوزفيتز أن الحربَ ليسَت ممارسةً للإرادةِ موجَّهَة نحو مادّةٍ جامدَةٍ، كما هو الحالُ في الفنون الآلية، أو ضدّ مادّةٍ حيّةٍ إلاّ أنّها سلبيّةٌ ودونَ مُقاومَةٍ... تُوجَّه الإرادةُ في الحربِ ضدَّ هدفٍ حيٍّ له «رُدود فعلٍ»: «عَن الحَرب (Vom Kriege)» للجنرال كارل فون كلاوزفيتز (Ge-neral Carl Von Clausewitz)، ترجمة: سليم شاكر الإمامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت، ط.1، 1997م، ص: 206 . وكثيراً ما يَحصُلُ بين دُولر قويةٍ وأخْرى مُستضْعَفةٍ تَسخيرُ «التَّدبير السياسيّ» لقضيّةٍ ما من أجل الربح التّجاريّ والحُصول على أرباح، أو ما يُمكن تسميتُه «بالصَّفقات التّجاريّةِ في السياسَةِ»، فتكونُ العلاقَةُ علاقةَ استنزافٍ اقتصاديّ يَنتفعُ منه الطَّرفُ الأقوى ويَتضرَّرُ منه الطّرَفُ الأضعَفُ.

إنّ موضوعَ الاستعارَة من أهمّ قَضايا التَّخطيط الحَربي الذي يُسوّغُ الحُروبَ والغاراتِ ويُخفّفُ من قُبح وجهها وصفَة التّطرُّفِ فيها؛ وهي «ظاهرةٌ لغويّةٌ واسعةُ الانتشارِ، متنوّعةٌ في تجلّياتها النّصّيّةِ وشديدةُ المُرونَةِ في الوظائفِ التي قَد تؤدّيها، ومَركزيّةٌ للعَديد من أنماطِ التّواصُل المُتباينَة، من التّفاعُل الحَميمِ عَبر الخُطَب السّياسيّةِ إلى التّنظيرِ العلميّ»[1]، نَستطيعُ أن نَتحدَّثَ عن مَعركةٍ استعاريّةٍ قبل حُصول أيّ مَعركةٍ. فالحربُ سياسةٌ وأعلى السياساتِ الحربيّة وأبرزها للنّاسِ ما استُخدمَت فيه الاستعارةُ للإقناعِ، ولحَمْلِ النّاسِ على مُوافَقَتك الرأيَ، فَغَدَت «الغاية البلاغيةُ العامّةُ للإقناع مَركزيّةً في كثيرٍ من الأفعال السياسيّةِ واللغةُ واحدةٌ من الأدواتِ الأساسيّةِ لتَحْقيق هذا الهدفِ العامّ؛ فاللغةُ تُؤدّي دوراً مركزيّاً في السياسَةِ (وإن لم يَكُنْ مُعترَفاً به دَوماً)، وأنّ الكثيرَ من الأفعال السّياسيّةِ .كليا أو جزئياً .فعلٌ لُغَويّ... فالاستعارَةُ أداةٌ مَفاهيميّةٌ ولغويّةٌ مهمّةٌ لإنجازِ الإقناعِ...»[2]، وحقيقةُ تأثيرِ الاستعارَة في إقناعِ المُخاطَبِ أنّ المتكلّمَ أو الكاتبَ أو السياسيَّ أو مُنظّرَ الحربِ يُعيدُ تَركيبَ الكلامِ استعارياً، فيَعمدُ وهو يتحدثُ استعارياً بمُفرداتِ شيءٍ عن شيءٍ آخَر، إلى تَقديمِ بعض أبعادِ الظّاهرَة

(1) من الأمثلَةِ الاستعاريّةِ المَضروبَة بينَ فَريقَيْن مُتنازعَيْن مُختلفَيْن في مسألةٍ ما: هَل نَقولُ: الكوبُ نصفُ فارغٍ أو نصفُ ممتلئٍ، ولكل تعبيرٍ غايةٌ، وإنْ كانَت حقيقة السؤالَيْن واحدةً، وهي من التّعابير الاستعاريّةِ التي تُسهمُ في الأغراضِ البلاغيّةِ، وليسَ الأمرُ إلاّ كَلاماً أو تَفكيراً في شَيءٍ ما بمُفرَداتِ شيءٍ آخَر، فنتجنّبُ مُفْرَداتٍ ذاتَ وَقعٍ شديدٍ على النّفسِ ونختارُ بَدلاً منها كلماتٍ وعباراتٍ ألطَفَ وألينَ... انظرْ كتاب: الاستعارَة في الخِطابِ، (Metaphor in Discours) إيلينا سيمينو، ترجمة: عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المَركز القَومي للترجمَة . القاهرة، ط.1، 2013م، ص:21.

(2) إيلينا سيمينو، الاستعارَة في الخِطابِ، (Metaphor in Discours)، ص:197.

ووضعِها في الصَّدارَة، وتَنحيةِ أبْعادٍ أخرى، فيتمكّنون من التأثيرِ في وجهاتِ نظرِ المتلقّينَ.

بل تُصبحُ الاستعارةُ[3] أداةً من أدواتِ تَسويغ التّطرُّف في المواقفِ وإباحةِ المَمنوعِ قانوناً وعُرفاً؛ عندَما تَستغلُّ العَقائدَ الواعيةَ والعَواطفَ غير الواعيةِ لرسمِ تَمثيلاتٍ وصورٍ تَحكُّميّةٍ متطرّفةٍ تُقنعُ المُخاطَبينَ الذين يَخضعون لحُكم المتكلّم بالخطابِ. تَعملُ الاستعارةُ على تَحقيق ثلاثِ وظائفَ تُستَخدَمُ لها العباراتُ اللغويّةُ لتحقيقها في عالَم السياسةِ: «القَسرُ، وإضفاءُ الشرعيّةِ وسَحْبُ الشّرعيّة والتّمثيلُ وإساءةُ التّمثيل»[4]، وتَنسلكُ العباراتُ الاستعاريّةُ في وظيفةِ التّمثيلِ لأنّ تأويلها يَعتمدُ على تَحويل المادّةِ من مجالِ المصدرِ إلى مجالِ الغايةِ الهدَفِ. وتُعَدُّ العملياتُ الاستعاريةُ سبيلاً مهما من السُبُل التي «تَصوغُ الأذهانُ البشريةُ بواسطتها مَفاهيمَ بيئاتهم المَكانيّةِ والزّمانيّة وعللها»[5]، فهم يَعمدون إلى سياقِ حياتهم ونشاطاتهم وعلاقاتهم فيستخلصونَ منها مَفاهيمَ ذهنيةً، وتشمل مثلُ هذه المفاهيمِ على سبيل المثال مؤسساتٍ

(3) اقْتَضى أمرُ استعمالِ الاستعاراتِ لأغراضٍ تَداوليّةٍ متعدّدةٍ كأمور الحَربِ والسّلمِ والإشهارِ والإقناعِ، وُجودَ أنماطٍ من الاستعاراتِ في التّفكيرِ الدّلاليّ المُعاصرِ، منها الاستعاراتُ الأحاديّةُ التّركيزِ، والاستعاراتُ التّصويريّةُ، والاستعاراتُ التّعليميّةُ، والاستعاراتُ التّفسيريّةُ، والاستعاراتُ الحاسوبيّةُ، والاستعاراتُ ذاتِ العلاقَة بالآلاتِ، والاستعاراتُ المَفهوميّةُ، والاستعاراتُ الكُبْرى، واستعاراتُ الحَربِ، والاستعاراتُ المُغْلَقَةُ، والاستعاراتُ المَفْتوحةُ، والاستعاراتُ المَقْصودةُ، والاستعاراتُ الممتدَّةُ عبرَ النّصّ، والاستعاراتُ الأوليّةُ، والاستعاراتُ اللّغويّةُ الشّارحةُ، والاستعاراتُ المرئيّةُ، واستعاراتُ التّعليماتِ، واستعارَةُ الدّفعِ، واستعارَةُ التّواصُل... انظر فهرس كتاب: الاستعارة في الخطاب.

(4) إيلينا سيمينو، الاستعارَة في الخِطابِ، (Metaphor in Discours)، ص:197.

(5) نفسُه، ص:205.

سياسيةً واجتماعيةً وعلاقاتٍ دوليةً ومَبادئَ «استراتيجية»، ويصلُ حدُّ قيمَة الاستعاراتِ. وخاصةً الاستعارات السياسيّة التي تُسوّغُ مواقفَ التّطرُّفِ لاعتمادِها واتّخاذها. إلى رَبْط «الشخصيّ» بـ «السياسيّ» من خلالِ تَقديم طريقةٍ لرؤيةِ العلاقاتِ وتَشخيص المجَرَّداتِ وصَبْغ التَّعقيد بحُلّةٍ من المُفرداتِ السّهلَةِ.

لاحظْ كيفَ يتطوَّرُ التطرُّفُ في مَواقفِ دولةٍ من الدّولِ عندَ اعتزامِها شنَّ عُدْوانٍ على دولةٍ أخرى لقَهرِها والقَضاءِ على عَناصر القوّةِ فيها[1]؛ من الحَديثِ عن الظّلمِ وقُبْح آثارِه وتشبيهه بما يَسْتَقذرُه النّاسُ وتهيئةِ نُفوسِ المخاطَبينَ لكُرهه، إلى الحَديثِ. في خطابٍ عاطفيّ أخلاقيّ عيد عن الحربِ والإعداد لَها. عن أقيسَةٍ على صورةِ الظّالم والمَظلوم، وهي إلصاقُ الظّلم بطرفٍ معيَّنٍ، ثمّ الانتقال إلى الحَديثِ عن أنّ الواجِبَ الأخلاقيَّ يَقتضي من رجلِ الدّولَةِ السياسيّ المتكلّمِ أن يهبّ لنُصرةِ المَظلومينَ وتأديب الظّالمينَ وتَطهيرِ الأرضِ من الفَسادِ، وبعد ذلك يتطوّرُ الخطابُ إلى إعداد النّاس لتقبُّل فكرةِ شنّ الهُجومِ وتصديقِ العباراتِ الاستعاريّة المَبثوثَة في الخطاب: تَشبيه الاجتياح الأرضيّ

(1) هنالكَ أنموذجٌ من نَماذج المداخل اللغوية التي قَد تُسعفُنا في فهم الجانب السياسي المُبالَغ فيه الذي تتخذُه دولٌ من دَولةٍ، فتُحسّنُه لبيدُوَ مَقْبولا للناظرينَ: إنه المَدْخَلُ الصَّرفيُّ أو القِراءة الصَرفيّة لأزمَةٍ من الأزماتِ بين الدول، كأزمة حِصار دَولةٍ أو أكثرَ لدولةٍ أخرى؛ تَفرضُ المُحاصِرَةُ طَوعاً على المُحاصَرَةِ لمعاقَبَتها على فعل ما، لكن عندَما نُريدُ أن نحلّلَ الموقفَ فلا يَنبغي أن تُختزَلَ الأزمةُ في مصطلح «انقسام بين دُوَل»؛ لأنّ الانقسامَ فعلُ مُطاوعةٍ واستجابةٌ حُرّةٌ لرغبةٍ طَوعيّةٍ في الخلاف، أمّا فعلُ الحِصارِ أو المُحاصَرَةِ فهو فعلُ مُشاركةٍ بين مُحاصِرينَ لإرغامِ مُحاصَرٍ وتَذليلِه، والحصارُ والمُحاصَرَةُ. في الدّلالَة الصّرفيّة، فعلُ مُشاركةٍ وتَعاوُنٍ لإنجازِ فعلٍ قَهريّ، فليسَ الذي يَجري بين الطَّرفَيْن خلافاً يُرادُ أو رغبةً طَوعيّةً في الانقسام، ولا يَدخلُ في مُعجَمِ أفعالِ المُطاوَعَةِ، ولكنّه إكْراهٌ للبُلوغِ بالمُحاصَرِ إلى درجةِ معيّنَةٍ من الضَّرر يُريدُها لَه المُحاصِرُ.

والقَصف الجوّيّ بعملية جراحيّة سَريعَة لاستئصال الوَرَم الخَبيثِ ثم تضميد الجِراح، ويَشرعُ الخطيبُ في تسميَة العمليّة بعاصفة الصحراء أو بأي وصف له بدءٌ محدّد وانتهاءٌ سَريعٌ وأنّ مَن يتولاّه يَتحكّم في عمليّتَي البدء والإنهاءِ. ولتحقيق النتيجة المَرجوَّة يُصدر المتحدّثُ بَياناتٍ أو نُصوصاً مُنتقاةً بعنايةٍ ومَكتوبَةً على نحوٍ يَجعلُ منها نصوصاً تتوفَّرُ على «تماسُك تَناصّيّ وتَماسُك نَصّيّ » وهو العُنصرُ الذي يشدُّ أجزاءَ النّصّ ويَجعله متماسكاً متلاحم الأجزاءِ، بَل يَربطُ بين نصوص كثيرةٍ تَفَرّقَت فيها عناصرُ الفكرةِ والمنزَع، وهي ما عبّر عنه «شيلتونوشافنر» «بالبنية المَفهومية لإيديولوجيا نَسَقيّة يُعبَّر عنها بنُصوصٍ عَديدةٍ وكَلامٍ كَثيرٍ»[2].

أنموذج آخَر في مُواجَهَة التَّطرُّف بخطابٍ تفكيكي مُضادٍّ:

تُستعمَلُ في الخطابِ الرسميّ المُضادّ للتّطرُّف ألفاظٌ ومُصطلحاتٌ وعباراتٌ ذاتُ دلالاتٍ مُستنبَطَة من القَوانين والتشريعاتِ والنُّصوصِ الشَّرعيّةِ المَعمولِ بها في البَلَد، وهي مَرجعيّةٌ ثابتةٌ تُعبّرُ عن مَوقفِ البَلَد الرَّسميّ من الخَطّ القَويمِ في التّديُّن والطريقَة المُثْلى في التفكير الدّينيّ، وتُعدُّ خُطَبُ الجُمُعة والمذكّراتُ المُوجَّهَةُ من الجهاتِ الرّسميّةِ خطاباً لغوياً يُعبّرُ عن المَنهجِ الأمثلِ في تَدبير الحَقلِ الدّينيّ، من أجل نشر «التّديُّن الصَّحيح» و«الوَعْي بخطرِ التّطرُّفْ» و«حمايَةِ العَقيدَةِ

(2) ذكَرَ ذلك كلٌّ من Chilton, P. and Chaffner, C. في بَحثَيْهما: Introduction; Themes and principles in the analysis of political discours.

نقلاً عن: الاستعارَة في الخِطابِ، لإيلينا سيمينو، ص:197.

والتّديُّن»[1] و«إنشاء مَراكز رسمية استراتيجية» خاضعة لسياسة البَلَد المُنتج لَها ولرؤيته في مواجهة التطرف[2].

(1) من أمثلة العباراتِ اللّغويّةِ التي يُبْنى منها خطابُ تدبير الشأن الدّينيّ ومواجهَة التطرف، ما نجدُه في أكثر الخطابات الرسمية المكلَّفَة بتلك المهمة، نحو: يتميز البلَدُ باستمرار الحضور الفاعل لمشيخة العلماء/المُحافظة على ثوابت الدين/دور العلماء في حماية الهوية مع استحضار خلفيات المتربصين بها/طريقةُ الطَّوائفِ المنحرفة في تفسير الدين/التَّصورُ المثاليّ الوهميّ عن تجلي الدين في الحياة عند الطَّوائف والمُغرِّدين خارجَ السِّرْبِ/الأهواءُ والأطماعُ التي تَتربَّصُ بالدّين لتَستعمِلَه قناعاً/الأقلية الهامشية/استعمال الخلاف الجزئي في التعبئة السياسية/ظهور الخلاف بين العلماء العدول وأصناف المنحرفين/انبعاث هيئات في قوالب عصرية تطمح إلى استغلال الالتباس في الفكر السياسي من جهة وضعف التأطير التقليدي من جهة أخرى/ظهور كتابات تتهم المجتمع الإسلامي الحاضر بالجاهلية وتبرر العنف/ظهور كتابات عن الحاكمية/إحداث الخلخلة في الهوية المذهبية لعدد من البلدان/الإرهابُ وتَحريفُ المفاهيم الشرعية لتسويغ مشروعها وتسويقه/الجاهلية والخلافة الراشدة والشورى والحاكمية/الخروج عن الإجماع واللامذهبية/الولاء والبراء/الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/التكفير والجهاد/المتطرفون فتنة على الأمة فينبغي دَرء مفاسدهم.

(2) هَلْ نَعُدّ إنشاءَ مَراكزَ استراتيجية لصُنع «خطاب مواجَهَة التطرف» نَماذجَ لمواجهة خطاب التطرف والعُنف؟ لبعض دول العالَم الكبرى سياسةٌ في إنتاج «الخطاب البَديل»، وتَقديم نماذجَ تدخلُ في «مُواجَهَة التَّطرُّف بخطابٍ مُضادٍّ»؛ ففي حوار بين وزير الخارجية الأمريكيّ «ريكستلرسون» السيناتور الجمهوري «سكوت بيري»؛ ذكر الوزيرُ أنّ من غايات الإدارَة الأمريكيةِ إنشاءَ مَركز لمكافحة الخطاب الإسلامي المُتطرّف، وقال إنّ من مهام المركز اتخاذَ وسائلَ يتوسلُ بها من أجل مهاجَمَة التّطرُّف الإسلاميّ العالَمي، وقد اتّخذوا خطوات في الطريق منها استبد الكُتب دراسية ومقرراتٍ جديدَة بالكتب والمُقرراتِ السائدَة المُستعمَلَة في العالَم التي تفرخُ التطرف وتُسوّغُ العُنفَ، وتَدريب أئمة شباب جُدُد بدلا من الأئمة الذين «يَحملون فكراً متطرفاً». ومن شروط الأمريكيين في هذا التعاون التاريخيّ أن تُسْحَبَ الكتبُ القَديمَة وتُسلَّم للإدارة الأمريكية للاطمئنان على تحقيق الأهداف. أضفْ إلى الخطواتِ الواسعةِ خطوةً أوْسَعَ وهي تغطية وسائل الإعلام وشبكات التواصُل الاجتماعيّ للاتفاق من أجل النشر والتعميم والتطبيع، فيصير الاتفاق نفسُه خطاباً إعلاميا بامتياز، بمُصطلحاته وألفاظه وأمثلته ونسَقه.

ولكن تَبيَّن أنّ «مَركز الحَرب الفكرية» (IWC) لم يُنشأ لمحاربَة عموم التطرف والإرهاب ولكنه مُقيَّد بخُصوصية أزمة الخَليج؛ فقَد أشار الخبيرُ الأكاديميُّ الأمريكيّ ثيودور كاراسيك Theodore Karasik في مقال له نُشرَ بصحيفَة Indrastra إلى أن «مركز الحرب الفكرية الذي أنشئ . بين

العرَب وأمريكا. لمواجهة التطرف، إنما أنشئ للتصدي لحَرَكة الإخوان وداعميها، [the Muslim Brotherhood (Ikhwan)]:

Karasik, T. «Fikr is Forward Leaning and Potent», IndraStra Global Vol. 003, Issue No: 07 (2017) 0038, http://www.indrastra.com/07/2017/Fikr-is-Forward-Learning-and-Potent-003-07-2017-0038.html | ISSN 2381-3652.

ليسَ مركزُ مكافَحَة الخطاب الإسلامي المتطرف الأولَ من نَوعه، فقَد سَبَقَه إلى الظهور والعَمَل والإنتاج شَبَكةٌ من مراكز البحث الكَثيرَة ذات المقاصد المحددة والمناهج المعينة في دراسة صورة الإسلام والمسلمين والعالَم العربي، التي تُخْتَصَرُ في «الإساءَة للإسلام والترويج للصور النمطية الكَريهَة والمُسيئة» والغالبُ عليْها أنها ذاتُ صلة بصُنّاع القرار السياسي في أوربا وأمريكا لأنها جزء من التنظير للقرارات السياسية وإنتاج الخطاب الاستراتيجي، ومن مهامها تطوير البحث والنقاش في القضايا الدولية والاجتماعية ومنها القضايا الإسلامي، بهدف إنتاج أبحاث ودراسات وتقريرات في ميدان السياسة العامة المتعلقة بالوقائع والأحداث الراهنة؛ وتهتم هذه المراكز والمعاهد والمؤسساتُ بإشكالات وقضايا مختلفة منها ما يتعلق بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ومنها قضايا الهجرة، والقضايا الأمنية والاستراتيجية، والحوار الديني، وقضايا البيئَة...

منها «مَعهد الدراسات حول الإسلام ومُجتمعات العالَم الإسلامي» (IISMM)، و«مجموعة الأبحاث والدراسات حول البحر المتوسط والشرق الأوسط» بفرنسا ([GRESMMO])، و«مَعهد الأبحاث والدراسات حول العالَم العربي والإسلامي» بفرنسا (IREMAM)، و«مركز دراسة الإسلام» في أوربا وبلجيكا (Centre for Islam in Europe)، والمَعهد الهولندي للدراسات الإسلامية بجامعة ليدن (NISIS Leyden)، ومدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة أكسفورد (SOAS Oxford)، و«مركز الدراسات العربية والشرقية» بجامعة السوربون (OEAO Sorbonne)، و«مَعهد أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد» الذي يرأسُه صمويل هنتنجتون صاحب نظرية صدام الحضارات، و«المَعهد الفرنسي للعلاقات الدولية» بباريس (IFRI).

مرجعُ هذه المعلومات المفيدَة هو: مقال «صورَة الإسلام والمُسلمين في المراكز البَحثية الغربية»، حسن عزوزي، رئيس مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام، بفاس. انظرْ: مجلة: الرابطة، رابطة العالَم الإسلامي بمكة، السنة 53، عدد:610، ذو القعدة 1438هـ أغسطس 2017م، ص:44. 47.

هذا، ويُهمنا من هذه المعلومات والأخبار في موضوعنا هذا، أن للتطرف خطابا لغويا، وأن الخطابَ المضاد يستفيدُ المنابرَ الإعلاميةَ التي تنتقي عباراتها، والمنابرَ التعليميةَ التي تُعنى بتأثير الخطاب في الناس وحملهم على فَهم محدد وفعل مبني على الفَهم المُراد.

خلاصَة:

كانَت تلكَ بعض نماذجِ الخِطاب الرَّسمي المُواجه لخطابِ التَّطرّف والمُفكِّك لَه، أنتجته المؤسساتُ الرسميّةُ عندَ تصحيح الفكر والتديُّنِ ومواجهةِ فكرٍ معيّنٍ أو مذهبٍ مناوئ أو كيانٍ «يُهدّدُ الأمنَ الرّوحيّ» حسبَ ما يَكشفُ عنه الخطابُ اللغويُّ الواصفُ المُسوّغُ المُعلِّلُ.

وقَد تبيَّن ممّا سبقَ تَحليلُه في هذه المقالةِ أنّ ثمَّةَ ثلاثةَ أطرافٍ يُمكنُ تصوُّرُها واستحضارُها عند الحَديثِ عن خطابِ التّطرُّف وما يُنجزُه من عباراتٍ واستعاراتٍ وبلاغاتٍ تَبلُغُ به إلى مَرماه؛

- خطابُ الأفراد المُتطرِّفُ الذي يَرفُضُ الواقعَ السياسيَّ والاجتماعيّ جملةً وتفصيلاً ويَبني في خياله أنموذجاً مثالياً لواقعٍ جديدٍ مَقطوع الصلةِ بالواقع الرّاهِنِ.

- وخطابُ الدُّوَل والمؤسَّساتِ الرّسميُّ، الذي يُواجهُ الأنموذجَ الأوَّلَ ويَبْني للمواجهَة عُدَّةً من المفاهيمِ والأفكارِ مُعبَّرٍ عنها بعباراتٍ مُنتَقاةٍ واستعاراتٍ تراعي قوَّةَ الإقناعِ المُخاطَبِ بالأطروحَةِ وإدانَة الخَصمِ وإثباتِ تَهافُتِ قَضيتِه وخطابِه وحُججه.

- والخطابُ النَّقديُّ المُحلِّلُ الذي يتَّخذُ التَّفكيكَ مَنهجاً والنَّقْدَ أساساً والموازناتِ بين الخطابَيْن المتضادَّيْن مَوضوعاً.

المحتويات

أولا . أهمية الخطاب اللغوي وأثره في إحداث الفعل 05

ثانيا . تَصويرُ الأفعال بصورٍ بلاغيّة مُسوّغَة أو مُنفِّرَةٍ أو مُقرّبَة 06

ثالثا . مَدخلٌ لغويٌّ لتَعْريفِ ظاهرَة التَّطرف 09

رابعا . التّطرُّفُ وأزمَة الفَهم 10

خامسا . مَفْهومُ التّطرُّف 12

سادسا . التَّطرُّفُ ومَفاهيمُ أخرى تقتسمُ الحقلَ الدَّلاليَّ 14

سابعا . هَل تَنطوي اللغاتُ على عَناصر العُنف والتَّطرُّف؟ 18

ثامنا . الخِطابُ المُضادُّ للعُنف والتَّطرُّف: خطابُ الفَهم والتّحليل 22

تاسعا . تطرُّفٌ في مواجهةِ التّطرُّف 27

عاشرا . خطابُ الفهمِ للظواهرِ والاستنباط منها
بين الثبات والتغيُّر 31

خلاصَة 44